

جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

آليات الحجاج في الخطاب القرآني

- مقارنة وصفية لسورتي الكهف والقصص -

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: علوم اللسان

إعداد الطالبتان:

* بن مشته سهام.

* بن سالم ريمة .

تحت إشراف الأستاذ(ة):

*ابو بكر زروقي.

السنة الجامعية: 2015/2016

شكر و تقدير

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم والمعرفة وأعاننا على أداء هذا
الواجب

ووفقنا إلى إنجاز هذا العمل

نتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف أبو بكر زروقي
على تفضله وقبوله الإشراف على المذكرة.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أشكر كل من ساهم من قريب أو
بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع و نخص بالذكر كل من:

ليديا، أمال و رحمة.

إهداء

إلى من علمتني النجاح والصبر

إلى من افتقدتها في مواجهة الصعاب

ولم تمهلها الدنيا لأرتوي من حنانها.. أمي

إلى النور الذي ينير لي درب النجاح

إلى من أحمل اسمه بكل فخر... أبي " محمد "

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة

إلى رباحين حياتي... إخوتي و أخواتي

يزيد، جمال، فهيمة، جعفر، عز الدين و إلى الكتوتين نسيم و يزيد.

إلى جدتي رقية وجميلة أطال الله في عمرهما

إلى الخالة لويزة وزوجة الأخ حنان

إلى كل الأهل و الأقارب و عائلة الزميلة " بن سالم ريمة "

إلى كل الأصدقاء

أهدي ثمرة هذا المجهود

سماو بن مشتة

إهداء

إلى من لا يمكن للكلمات أن توفي حقهما
إلى من لا يمكن للأرقام أن تحصى فضائلهما
إلى والدي العزيزين أحامهما الله لي

إلى إخوتي و أخواتي رمي ، أنيس ، زين الدين ، زكري ، و إلى جدي
و جدتي أطال الله في عمرهما ، و إلى زميلي و صديقتي التي تعبت
كثيراً بن مشته سهام ، و إلى كل عائلة بن سالم صغيراً و كبيراً ، إلى
شريك حياتي الذي ساندني مادياً و معنوياً " سعيد " .

إلى كل عائلتي الثانية " عبد الكريم " ، و خاصة الصغيرتين
و الكتكوتتين " منال و أسماء " .

و إلى الصديقتين العزيزتين " بوحبيدي نسيم " و " يقة صبرينة "
و إلى كل من حفظته ذاكرتي و لم يخطه قلبي .

و إلى كل الأهل و الأقارب

أهدي هذا العمل

ريمة بن سالم

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ⁽¹⁾ ﴾ سورة

الكهف ، الذي نور بكتابه القلوب و أنزل في أوجز لفظ، و أعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، و أعجزت حكمته الحكماء، و ابكمت فصاحته الخطباء، و السّلام على سيدنا محمد و آله و صحبه و من تبعهم عدد خلقه في السموات و الأرض إلى يوم الدين، أمّا بعد:

لقد نال القرآن الكريم حظاً وافراً من الدراسة، و التحليل فكان و لا يزال محطّ أنظار الدارسين، و مناط بحثهم، فهو رسالة موجهة للبشر جمعاء ليسطر للفرد علاقته مع نفسه من بني البشر بتشريع الأحكام، و توضيح المقاصد، و طرق المعاملات، فجاءت رسالاته بناءً و تبليغاً مؤسساً وفق مقدّمات خطابية تواصلية، تخاطب و تحاور الآخر، متخذاً الإقناع سبيلاً يسلكه في التأثير في متلقيه لاعتماده تقنيات و آليات تواجه عاطفة المتلقي و عقله و ضميره، إذ يحتوي على أشمل و أوسع خطاب، و لعلّ أهم السمات التي تطبعه هي "الاعجاز" و "سحر البيان"، و بحثنا هذا يتناول آلية من آليات البيان في الاعجاز القرآني، تتعلق بـ "الحجاج" فالقرآن الكريم خطاب حجاجي موجه في أساسه للتأثير على أراء المخاطب و سلوكياته و توجيه النفوس، و لذلك وظّف الكثير من الأساليب الحجاجية التي تؤمّن له الغايات، و هذا ما دفع في نفسنا رغبة لدراسة آليات الحجاج في الخطاب القرآني، إذ أنّ الدراسات الحجاجية اليوم تحظى بأهمية كبرى نظراً إلى النضج الذي طال مجالات تعريفية عديدة كالمنطق و اللسانيات، و علم النفس.

لكن رغم هذا المجال لا يزال بكرًا في ثقافتنا العربية المعاصرة فأردنا لهذا البحث أن يكون تكميلاً بسيطاً لما سبقه من الدراسات و البحوث على وجه التحديد، لما فيها من إعجاز البناء اللغوي، و سمو الغاية الربانية، باعتبارها من أهم الوسائل الحجاجية في القرآن الكريم.

لقد وقع اختيارنا على سورتي "الكهف و القصص" بحيث جمعت بين الصدق و الجمال، و إتلاف الغرض الذني بالفني، فالمتعامل في السورتين تستهويه، بما عرضته من شخصيات، و أحداث، و سلوكيات، و عظات و عبر و أهداف تربوية لإثبات العقيدة، و تحقيق التوحيد لله عزّ و جل.

و الواقع أنّ تتبعنا لقصص السورتين أتاح لنا فرصة التأمل في أهدافها بما قدّمته لنا من صور و أساليب تتيح للعقول السموّ بالأفكار إلى إدراك جمالية الخطاب القرآني و قداسة رسالته، و تحقيق حجاجيته.

و قد حاولنا من خلال هذا البحث الاجابة عن تساؤلات منها:

- مفهوم الحجاج؟ و ما أهم مصطلحاته و مفاهيمه الدلالية؟

-كيف كانت نظرة العلماء العرب و الغرب القدامى و المحدثين امفهوم

الحجاج؟

-ما هي أهم الآليات الحجاجية للخطاب القرآني عامّة؟ و في سورتي الكهف

و القصص على وجه التحدي لتحقيق الإقناع؟

و كانت من أسباب اختيارنا لهذا الموضوع :

- ميلنا للخوض في القرآن الكريم و محاولة الكشف عن دوره و آلياته. و كذلك لدراسة الخطاب القرآني و خصائصه، و الأسس التي يقوم عليها لبلوغ أهدافه.
- لأنّ البحث في القرآن الكريم و التدبير في معانيته، عملٌ لا تنضب مادته و لا يقل زاده، و جهدٌ لا تضيق مساعيه، ولا يخيب رجاءٌ من خاض فيه.
- يقيننا بأنّ القرآن الكريم هو خير مجال لضبط أصول و بيان العربية و التعرّف على أساليبها، و اتهام الجاحدين للخطاب القرآني بأنّه حصري يختصّ بقوم العرب دون سائر الأقوام.
- إدراك جمالية التصوير القصصي في القرآن الكريم المتفرد ببيانه و أساليبه و سحره و وظيفته الحجاجية.
- البحث في حجاجية النصّ الربّاني انطلاقاً من خصائصه التي تتميز بطاقة حجاجية، و ضرورة الوقوف على كيفية محاجة القرآن الكريم للكفار و المعاندين.
- و لملاحظتنا قلة الدراسات في هذا المجال، خاصة ما تعلق منها بالحجاج في القرآن الكريم و خاصة قلة الدراسات التطبيقية في الآليات الحجاجية في الخطاب القرآني.
- و سبب اختيارنا لسورتي الكهف و القصص، لتنوع السلوب القصصي فيها، و تفرد، و تميزها بدقة الوصف و سحر البيان. و جمالية التمثيل، و هذا ما ذل على حضور معالم الحجاج فيها إذا احتوت على الخطاب ، و الحوار و الجدال و المحجة لا ثبات صدق الدعوة و النبوة و العقيدة، فكانتا نموذج يحتذى به في الانعناع و التأثير، ليعلم الإنسان كيف يقنع و يقتنع و يتعظّ بالتّي هي أحسن، و يثير فيه طبيعة المواجهة و يحركه من صمته، و هنا تكمن أهمية هذا الموضوع.

ومن أجل الوصول إلى تحقيق هذه الأهداف، جاء بحثنا موسوماً بـ "آليات الحجاج في الخطاب القرآني - مقارنة وصفية لسورتي الكهف والقصاص -"، وقد قسّمناه إلى:

-مدخل عام: تناولنا فيه مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح.

-الفصل الأول: دلالة الحجاج عند العرب والغرب، قسّمناه إلى مبحثين:

*المبحث الأول: الحجاج عند العلماء القدامى الذين يمثلهم أرسطو، والمحدثين الذين يمثلهم بيرلمان وديكرو ثم عرضنا لتناول العلماء العرب للحجاج انطلاقاً من القدماء كالجاحظ وصولاً للمحدثين كطه عبد الرحمن.

*المبحث الثاني: الحجاج في القرآن الكريم، عالجنّا فيه الحجاج ومرادفاته الدلالية في القرآن الكريم ومنها (الجدل، البرهان، الإقناع، المناظرة، الحوار المناقشة والخصام والنزاع) وأوضحنا الفرق بينها وبين الحجاج.

-الفصل الثاني: الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم، قسّمناه إلى ثلاثة مباحث:

*المبحث الأول: عرّفنا فيه الخطاب لغة واصطلاحاً، قوانينه وأنواع الخطاب الحجاجي وأنواع الحجج.

*المبحث الثاني: عرّفنا فيه النصّ الحجاجي، مكونات الحجاج، خصائصه، ووظائفه.

*المبحث الثالث: تناولنا فيه تصنيف الخطاب القرآني، وبيّنا أنواع الخطاب القرآني، والأسس التي يقوم عليها الإقناع في القرآن الكريم، والاستمالات المستخدمة في الرسالة الإقناعية.

-الفصل الثالث: آليات الحجاج في سورتي الكهف والقصاص ويعتبر

*المبحث الأول: وصف المدونة (الكهف، القصاص) من حيث سبب التسمية، وأسباب

النزول، والمضمون.

***المبحث الثاني: آليات الحجاج في سورتي الكهف والقصاص، وجاء مزيج بين النظري**

والتطبيقي تناولنا فيه:

أولاً: الآليات البلاغية (البيان: الاستعارة، التشبيه، الكناية).

ثانياً: الآليات اللغوية (الاستفهام، الشرط، التوكيد، الإيجاز، التكرار).

ثالثاً: الآليات الفلسفية (القياس، الإضماري، قياس الخلف، قياس التمثيل)، والعوامل والروابط الحجاجية، مع تقديم نماذج لهذه الآليات الثلاث في كلا السورتين.

-**الخاتمة:** وهي خلاصة للأفكار والنتائج التي توصلنا إليها في موضوع بحثنا، متبوعة بمجموعة من الفهارس التي تعين القارئ على الرجوع إلى المتن وقراءة المباحث التي يريد بسهولة.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج الوصفي، باعتباره الأنسب لهذا النوع من البحوث، في وصف الظواهر الحجاجية الكامنة في الخطاب القرآني، والقصاص في سورتي الكهف والقصاص، بغرض فهم الإطار النظري.

وأما المنهج المخصص للجانب التطبيقي من الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي الذي يبحث في وصف وتحليل الشواهد الحجاجية في السورتين، بحيث أتبعناها بالشرح والوصف والتحليل، وقد استعنا بالمنهج التاريخي في رصد المسار التاريخي للحجاج في منظور العرب والغرب القدامى والمحدثين وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المصادر العربية التي يظهر الحجاج فيها بتسميات مختلفة، كالبيان والتبيين للجاحظ، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني،...والحديث كالحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية لعبد الله صولة، وبعض المعاجم، كمعجم لسان العرب لابن منظور وبما أن الخطاب القرآني يحتاج إلى

تفسير، فإننا وجدنا ضالّتنا في تفسير التحرير والتتوير للطاهر بن عاشور، وزبدة التفسير للدكتور محمد سليمان عبد الله الأشقر.

وحتمًا قد واجهتنا صعوبات ككل باحث، إذ كانت تجربة جديدة، خاصة في تعاملنا مع خطاب الله عزّ وجل، باعتباره خطابًا حساسًا وكذلك كون الحجاج ذو طابع فلسفي، والحجاج القرآني موضوع واسع مترامي الأطراف ذو محاور ومجالات متعددة، فلم ينقضنا إلا الإيجاز والتقدم في البحث بحذر.

كما لقينا صعوبات في استخراج الآليات الفلسفية في سورتي الكهف والقصص، وتقديم نماذج عنها، فالدراسات التي تناولت هذا الجانب من الحجاج قليلة جدا، فكان السبيل الوحيد لفهم آيات السورتين واستخراج النماذج الحجاجية منها العودة إلى التفسير مع حرصنا أن لا نصدر أحكامًا قد فيها، أو تكون في غير محلها، ضف إلى كل هذا قصر الوقت الممنوح لانجاز الدراسة بسبب الإضرابات المتكررة على طول السنة، وعدم توفر مراجع في هذا الموضوع في المكتبة الجامعية. ويعود الفضل الكبير في إنجاز هذا البحث لمن جعلته سندي وسألته فأعطاني إلى ربي منير دربي.

ثم إلى أستاذي المشرف الذي يسّر علينا بعض ما بملاحظاته وتوجيهاته القيمة في الخوض في صعوبات البحث.

و في الأخير نرجو أننا قد حقّقنا ولو قليلا مما نصبوا إليه من خلال هذه الدراسة الخاصة بالحجاج، فما كان من صواب فيها فمن عند الله، وما كان من زلل فمن نفسنا ومن الشيطان.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

مداخل

مدخل :

يستدعي التأثير و الإقناع في التخاطب آليات فاعلة لتحقيقه، و لذا نجد الحجاج ميزة من ميزات هذا التخاطب بمواقفه المتعددة و أشكاله المتنوعة بين الشفوية و الكتابية، و لذا يعد ركيزة النصوص الموجهة المتضمنة للمقصدية و النقاش و النقد، و التي منها النصوص القرآنية و الفلسفية و الفقهية و الأدبية و البلاغية ، فتعود دراسة النصوص الحجاجية و الآلية الحجاجية إلى أزمنة بعيدة بداية من مؤلفات "أرسطو" في الخطابة و انتهاء إلى أعمال كبار المفكرين كـ " كبرلمان، و مايير، و ديكو" التي أحاطت بالحجاج و النص الحجاجي في كل ما يمكن أن يطرأ عليه من خلال عدة نظريات.

سنحاول في هذا المبحث التعرف على دلالة الحجاج في الدراسات العربية و الغربية القديمة و الحديثة، و الحجاج في القرآن الكريم لإشتماله على أوسع و أكمل خطاب، فقد علم الناس كيف يفكرون، وكيف يستتبطون الأحكام العقلية المنطقية المبنية على نتائج صحيحة، كما علمنا آداب الحجاج و الجدل و الحوار و المناظرة و الاستدلال و الإقناع الحسن، و سنتطرق إلى كل هذه الأساليب الشاملة المتنوعة، و كذا تبين التقارب و التداخل، و الفرق بين الحجاج و أسرته المفهومية.

1- الحجاج لغة و اصطلاحًا :

1.1- الدلالة اللغوية:

تجمع المعاجم اللغوية الأساسية في تعريفها للحجاج على ما جاء في لسان العرب "لابن منظور"، يقال: "حاجبته حجابًا و محابةً، حتى حجبتة، أي غلبته بالحجة التي أدليت بها.

و المحبة: الطريق. و قيل جادة الطريق. و الحجة الدليل و البرهان، و قيل: الحجة ما دافع به الخصم.

و قال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، و هو رجل محجاج أي جدل، و حجة، يحجه حجاجًا: غلبه على حجته في الحديث: " فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة"¹.

و نجد ابن فارس يحصر مادة (حجج) في أربعة معان كبرى، قال: " الحاء و الجيم أصول أربعة:

○ الأصل الأول: القصد، و كل قصد حج ...ثم اختص بهذا الاسم إلى البيت الحرام للنسك. قال و من الباب: المحبة، و هي جادة الطريق ... و ممكن أن تكون الحجة مشتقة من هذا، لأنها تُقصدُ، أو بها يقصدُ الحق المطلوب، يقال: حاجبت فلانا فحجبتة أي غلبته بالحجة، و ذلك الظفر يكون عند الخصومة، و الجمع حُججٌ، و المصدر الحجاج².

○ الأصل الثاني: الحجة و هي السنة، و يمكن أن يعود إلى الأصل الأول، لأن الحج في السنة لا يكون إلا مرة واحدة، فكان العام سمي بما فيه من الحج حجة.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1992م مادة '(حجج)'، ص: 570.

(2) المصدر نفسه.

○ الأصل الثالث: " الحجاج، و هو العظم المستدير حول العين"¹ يدل على الاحاطة و الصلابة.

○ الأصل الرابع: الحَجَجَة: النُّكُوص، التوقف و الإرتداع، و بدل عليها لفظ " الحججة" حيث يقال: حجج عن الشيء أي كف عنه²

و إذا قارنا دلالة الحجاج في اللّغة العربية بدلالاتها في لغة أجنبية كالفرنسية فإنّ معنى Argumentation تقابل معنى الحجاج، ولا تختلف من حيث الجوهر عن معناها في اللّغة العربية. إذ أنّ لفظة Argument تحيلنا في القاموس " روبير" إلى معنى الإعتراض أو طرح موقف مصاحب بحجج تؤيد و جهة النظر.³

أما في الإنجليزية فيشير لفظ "Argue" إلى وجود اختلاف بين طرفين و محاولة كل طرف اقناع الآخر بوجهة نظره بتقديم الأسباب و العلل "raisons" التي تكون الحجة "Argument" مع أو ضد فكرة أو سلوك ما.⁴

و من خلال هذه التصديرات المعجمية نجد أنّ لفظ الحجاج أو المحاجة متضمناً لدلالة و معنى مستمدين من طبيعة سياقه أو شرطه التخاطبي المتمثل في التفاهم، التنازع، و الجدل، و الغلبة أي معناه الفكري و التواصل.

و تتطلب عملية الحجاج ثلاثة أركان أساسية، هي:

المحاج: و هو صاحب الغلبة في الحجاج.

المحجوج: و هو المغلوب.

الحجج: هي التي تدور حولها السنة كلّ من المتناظرين.

(1) ابن فارس مقاييس اللغة/ تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، د.ط. 30/2

(2) المصدر نفسه

(3) Le grand Robert, Dictionnaire de la langue française, p :535, T.1.Paris 1989.

(4) Longman, Dictionary of English, langman 1989.

2.1 اصطلاحا :

تتعدد تعاريف الحجاج من حقل معرفي لآخر، حسب العلوم التي يوظف داخلها أساسا أو عرضا، فهو يمثل تلك الخطوات التي يحاول بها الشخص أو الجماعة أن تقود المستمع إلى تبني موقف معين و ذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردة أو حسية ملموسة أو على قضايا صارمة تهدف في الأساس إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعته¹.

فالحجاج بالمعنى العادي: يعني طريقة عرض الحجج و تقديمها، و يستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجحا فعالا. و هذا معيار أول لتحقيق السمة الحجاجية، غير أنه ليس معيارا كافيا، إذ يجب ألا نهمل طبيعة السامع المستهدف، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبة السامع و مدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه، فضلا على استثمار الناحية النفسية في المستقبل من أجل تحقيق المطلوب فيه². مؤدية إلى نتيجة معينة و بإنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، بعضها بمثابة الحجج اللغوية و بعضها الآخر بمثابة النتائج التي نستخلص منها وذلك بتقديم حجج وأدلة ناجحة ، و بالتالي ممارستها ضد الآخرين دفاعا عن أفكارنا و معتقدتنا، حيث يكون لزاما عليها تبني موقف معين، معارضا أو مفندا مجاورا أو مقنعا، و الحجاج بوصفه نمطا من أنماط الخطاب، يمكن تسميته بالخطاب الإقناعي الذي يعرفه " بوتون فيليب": "بأنه نشاط إنساني يتخذ أوضاعا تواصلية متعددة، و وسائل متنوعة و يهدف إلى اقناع الشخص أو مستمع أو جمهور ما، بتبني موقف ما، أو مشاركة في رأي ما"³.

(1) ينظر فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط 1، 2007 ، ص 82 و ما بعدها.

(2) صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مدخل و نصوص، ص 20-21.

(3) voir : Philippe BRETON : L'argumentation dans la communication, Edition du Casbah, (3

Alger, Janvier 1998, P :03.

أما الحجاج بالمعنى الفني: فهو يدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب و المدرجة في الّسان، ضمن المحتويات الدلالية، و الخاصة الأساسية للعلاقة الحجاجية أن تكون درجية أو قابلة القياس بالدرجات بمعنى أن تكون واصله بين سلاام، لذلك يعتبر الحجاج سمّة في الخطاب و طابع فيه و وظيفة له و وسيلة لتحقيق هدفه، و هذا الشيء الذي أدى بالبلاغة الجديدة للاهتمام بالحجاج. يمكن أن نستخلص أن معظم التعريفات الإصطلاحية للحجاج ترى أن الحجاج عبارة عن علاقة تخاطبيه بين المتكلم و المستمع حول قضية ما.

و نرصد هنا تعريفا للحجاج بالنظر إليه على أنّه: " وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه و اتجاهاته، و انتقاداته و توجيهاته".¹

و يتحقق ذلك بانتهاج طريقة معينة في الاتصال و تحديد الغاية من ذلك في استمالة عقل المخاطب و التأثير فيه و اقناعه بمقصد معيّن، فلا يهم في الحجة أن تفيد البرهان أو الاقناع، لأنّ المطلوب هو إفحام السامع، و لأنّ الحجة بحدّ ذاتها لا يراد منها ما أفاد معنى قاطعا.

فالحجة: "هي الدليل نفسه إذا كان برهانا أو اقناعا أو شغبا"²

و الحجة الإقناعية: هي التي تفيد القانعين القاصرين عن تحصيل المطلب بالبراهين القطعية العقلية و ربما تقضي إلى اليقين بالاستكثار³

و يعد الحجاج نمط خطاب يرمي إلى تغيير رأي شخص باعتماد قوة العقل أو التأثير في الوجدان بواسطة اللغة، فالموضوع في الحجاج قابل للنقاش و اختلاف الآراء، لذلك هو يرمي إلى تدعيم أطروحة أخرى تخالفها و ذلك من خلال منظومة محكمة من الحجج،

(1) يمينة ثابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، دورية أكاديمية في اللغة و الأدب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 02 ماي 2007، ص: 284.

(2) الأحكام لابن حزم. ج40/1 دار الكتب العلمية بيروت، دت.

(3) الكليات ابو البقاء، أيوب الكفوي، ص: 406.

شرطها التنوع و التنسيق و الإحكام، كما أن الحجاج عادة ما يكون قائما على الحوار، محكوما بسياق معرفي و اجتماعي.

فالمتكلم أثناء العملية التخاطبية ينقل تصورات و مدركاته الموجودة في واقعه إلى المستمع، قاصدا بذلك التبليغ أو الإخبار أو التأثير في هذا المستمع، و بالتالي يعتمد المتكلم إلى إقناع الطرف الآخر أو التغيير في بعض معارفه و أفكاره، و بخاصة لما يظهر فيها من اختلاف بينهما، فيستعمل خطابا حجاجيا، لتلك الغاية " فالحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، و إنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق".¹

فمفهوم الحجاج متلو يصعب تحديده بدقة، و هذا راجع إلى تشعب مجالات استعماله، إذ أننا نجد بعضهم يرى أنّ الحجاج في الدراسات الحجاجية على ضربين أحدهما: أتت فيه لا تخرج من مجال المنطق و بذلك يكون مرادفا للبرهان و الاستدلال، و الضرب الآخر: هو واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة مجمل التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو القارئ".²

فيقوم الحجاج بتقديم الحجج و الأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، و هو يتمثل في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب أو في انجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، و بعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها، و كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محدّدة أيضا و أساسا بواسطة بنية هذه الأقوال، و بواسطة المواد اللغوية التي تتم توظيفها و تشغيلها.

(1) الحبيب أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري ضمن كتاب : الحجاج مفهومه و مجالاته ، دراسة نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد و تقديم حافظ إسماعيل علوي ج3، ط 1، 1431 هـ/ 2010م ص:31.

(2) عبد الله صولة، الحجاج فب القرآن الكريم، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، ط 2، 2007، ص:8.

الفصل الأول :

مفهوم الحجاج في الخطاب القرآني.

المبحث الأول:

الحجاج و عند العلماء القدامى و المحدثين .

المبحث الثاني:

الحجاج في القرآني الكريم.

المبحث الأول: دلالة الحجاج عند العرب و الغرب1/ الحجاج قديما:1.1 الحجاج في البلاغة العربية القديمة:

تعد البلاغة آلية من آليات الحجاج، و ذلك لاعتمادها الاستمالة و التأثير عن طريق الحجاج بالصور البيانية و الأساليب الجمالية، أي إقناع المتلقي عن طريق إشباع فكره و مشاعره معا حتى يتقبل القضية و يستسلم لمبتغى المخاطب و يذعن للفعل القائم في موضوع الخطاب، و إذا كانت البلاغة هي فن الإقناع بالخطاب وحب التأكيد أنه ليس حدثا معزولاً بل على العكس من ذلك، فإنه يقابل خطابات سبقته و استدلته و التي قد تكون ضمنية، فالقاعدة الأساسية للبلاغة هي أنّ الخطيب الذي يخطب أو يكتب يهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق مبدأ الإقناع، و إنه يعبر دائما عن ذاته مع أو ضد خطباء موضوع الخطاب. آخرين أي هناك دائما ارتباطا بخطابات أخرى، فالقول البلاغي إذن يهدف إلى الإقناع بوسائل مختلفة بهدف تحريك السامع عاطفيا لتبني موقف الخطيب، و ذلك إما بالشفوي أو الكتابي، و كل نوع له قواعد و مواصفات يتقيد بها المخاطب و يعمل على تطبيقها أثناء سير العملية الخطابية بغض النظر عن إن كان ما يقوله صحيحا أو مزيفا، فالمبدأ الأول و الهدف الأخير هو تحقيق الإقناع بإشباع فكر و مشاعر المتلقي، و إن تحقق ذلك بتوظيف الحجة القوية و حسن الإلقاء، فلن ينظر المتلقي لحقيقة و منطقية الأفكار المطروحة، و سينقاد للرأي الآخر و هو مقتنع بذلك. و من خلال التعاريف التي سنقدمها لبعض أهم رواد البلاغة العربية سنكتشف أن للحجاج حضور في البلاغة العربية التي شكل البرهان و الإقناع أحد أهم مباحثها، و يمكن القول أنّ البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان: جانب التواصل و الإبلاغ، و جانب الفن و الجمال، فالدلالة و الإبلاغ بما يعنيه من دقة و مباشرة و وضوح و إقناع. و الفن و الجمال بما يفرضانه من غموض و تخيل و إمتاع.

كما أن هناك مصطلحات كثيرة تقترب من مفهوم الحجاج أو تؤدي معناه. و كثير من علماء البلاغة من ربطها بمصطلح الحجاج و منها: علم المناظرة، علم آداب البحث و علم آداب الحوار و علم صناعة التوجيه، و علم الجدل أو الجدل، لكن مصطلح الجدل هو أكثر هذه المصطلحات حظا من التداول و الاشتهار لاسيما و أنه يقوم على نوع من التنافس و التنارع الرامي إلى الغلبة و الإفحام، و أنّ الغرض منه هو إلزام الخصم و إفحامه مع التغلب عليه في مقام التدليل، و سنحاول الإلمام بأهم التعاريف التي قدمت في الحجاج و كيف ربطت بهذه المصطلحات، بعدها سنوضح أهم الفروق بينها، و العلاقات التي تربطها. يجدر بنا الآن أن نقف عند أقطاب البلاغة العربية القديمة اللذين وظّفوا الحجاج في مؤلفاتهم، و شكل بنية أساسية في ابداعاتهم، فعلى قول ابن الأثير في المثل السائد: " مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان و التسليم، لأنّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستحيلة لبلوغ غرض المخاطب بها"¹.

فالمخاطب يحاول إقناع المخاطب و استمالاته بمجموعة من صور التعبير تضيف رونقا جماليا على خطابه شرط أن يحرص على وضوح الدلالة و حسن الإشارة في اختياره للكلام، بحيث تكون دلالة الإيحاء أحيانا أبلغ من دلالة التعيين و التصريح، لذلك قيل أنّ العرب تكنّي أكثر مما تصرّح، بما فيه من تقوية للحجة و تحقيق التأثير و الإقناع. فنجد الجاحظ في كتابه "البيان و التبیین" يقول: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة و ذلك أن يكون الخطيب ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوق، و يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة"². ففي هذا النص يتضح لنا أنّ

(1) ابن الأثير (المثل السائر) 64/2.

(2) الجاحظ البيان و التبیین، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط.د.ت، ص 92.

غاية الجاحظ هي الخطاب الإقناعي الشفوي، و هو اقناع تقوم فيه (إقناع) على الوسيلة (اللغة) و تحدّد الأولى طبيعة الثانية و شكلها حسب المقامات و الأحوال، كما يستشهد أيضا بخطابات من أقوال العرب سواء من الشعر أو في النثر، فهو يتعامل مع كل جنس بخصائصه التي تميزه على مستوى الشكل، و هذه من مزاياه النادرة. فمفهوم الخطاب الإقناعي عنده لم يقصر على جنس بعينه.¹

يعني في قوله هذا أنه باللغة نحقق الإقناع، ، وعلى المخاطب مراعاة المقام و الحال، فلا نكلم الأمي بلغة علمية يجهلها ولا نخاطب الأديب بلغة رديئة و ، بحيث يحسن المخاطب التصرف في كل طبقة و يختار الألفاظ و يرتبها في صيغ الكلام، فذلك يمنح للغة فعلا تأثيرا و بالتالي نحقق نجاح العملية الإقناعية.

و يظهر لنا أنّ " الجاحظ " (يدافع عن الحوار و ثقافته، محاولا وضع نظرية لبلاغة الحجاج و الإقناع أساسها مراعاة أحوال المخاطبين.) كما اهتم بالفعل اللغوي و اعتبره الأساس لكلّ عملية بيانية حجاجية، و يعتبر أنّ الكلام لا يمكن تمييزه عن البلاغة بحيث يضطلع في حياة الفرد بوظيفتين أساسيتين هما:

- 1- الوظيفة الخطابية و ما يتصل بها من إلقاء و إقناع و احتجاج و منازعة و مناظرة.
- 2- "البيان و التبيين"، "أو الفهم و الإفهام"، و مفهوم البيان عنده تتنازع وظيفتان أولهما إفهامية و الثانية حجاجية (إقناعية)، و من العوامل التي جعلت الجاحظ يهتم بالنزعة الحجاجية انتماءه المذهبي إلى المعتزلة و تصدره للدفاع عن العديد من أطروحاته، و كان من شأن هذا تحفيزه على التفكير في نصوص الخصوم ثمّ البحث عن الآليات الكفيلة بدحضها.

أما أبو هلال العسكري، فيرى أن الشعر هو الفن الأساسي الذي تقام به الحجج،

1) ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديد، المتحدة، ط1، 2004، ص 448-449.

و الشعر قد ينهض بوظيفة الحجاج و ليس وظيفة الجدل، و قد قال في شأن الحجاج: " ما تعطف به القلوب النافرة و يؤنس القلوب المستوحشة و تلين به العريكة الأدبية المستصعبة، و يبلغ به الحاجة و تقام به الحجة، فتخلص نفسك من العيب، و يلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه، و تستدعي غضبه، و تثير حفيظته*." ¹ و قد تحدث أيضا عن قضية المقام و كيف يكون في الحجاج، فأحسن ما قال: "كل مقام مقال" ² فتحقيق التواصل بين المتكلم و المخاطب هو الغاية و الهدف من مراعاة المقام و من الأمثلة التي يمكن أن نقدمها في هذا المقام بأبسط ما يقال : ذهاب الشخص إلى تعزية يراعي بذلك مقام العزى فلا يكثر الحديث الذي لا طائل منه كما لا يضحك لأن المقام غير مناسب بحيث يراعي شعور الآخر، و يكون حريصا على ما يتلفظ به ليواسي أهل العزى، كذلك بالنسبة للفرح، كما أنه لكل مكان حديث خاص، فليس البيت كالمدرسة ولا المدرسة كالشارع، ولا الشارع كالمسجد، فينبغي على المرء المعرفة بقوانين الحديث ليحقق التواصل و لتحقيق التواصل يجب توسط الكلام ما بين الاعتراف و الاعتدال، و خلوه من التنافر و التعقيد، فلا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا لأنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي ³.

و الوحشي هو الغريب من الألفاظ و هو ما نفر عنه السمع و سمّي " وحشيا" نسبة إلى الوحشي لنفارة و عدم تأنسه و تألفه، و حسب ما قاله ابن الأثير، كان قد جاء على معنى الوحشي فقال: " و هذا الكلام الذي نعه نحن في زمانا وحشيا لعدم الاستعمال، فلا

(1) ابو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ط 1، 2006، ص: 49.

(2) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، نفس المرجع، ص: 27.

(3) الجاحظ، البيان و التبیین، مج 1-2، ص: 104

*حفيظته هي الغضب أو الحذر (ج) حفاظ.

تظن أنَّ الوحشي من الألفاظ ما يكره سمعك، و يتقل عليك النطق به، و إنّما هو الغريب الذي يقل استعماله".¹

فأحسن اللفظ ما كان متداولاً مستعملاً عند كلّ زمان كأسماء الأرض والليل و النهار، و الحر و البرد، و ما شابه ذلك. و هو أحسن الألفاظ و أعذبها و أحلاها قيمة و أغلاها شأنًا. و هناك ما يسمى بالمتوحش عند قوم دون قوم، و ذلك ككلام البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحضر منهم، فإن أهل الحضر يألّفون السهل من الكلام و يستعملون الألفاظ الرقيقة الراقية، ولا يستعملون الغريب إلّا نادراً. و أهل البادية يألّفون اللفظ الجزل، و يميلون إلى استعمال الغريب.² تذكر من هذا مثالا: نجد لغة الأدب و علاقتها بالبيئة الزمانية و المكانية و الاجتماعية و صلتها بالمتلقي من أبناء هذه البيئة أو تلك، و اختلافاتها باختلاف البيئات وأصحابها، و مدى استجابتها لمظاهر التطور و التجديد في حياتهم حسب الطبقات الاجتماعية التي يمثلها الأديب أو يوجه إليها خطابه الأدبي.

كما ذهب علماء آخرون إلى استعمال مصطلح الجدل بمعنى الحجاج، ومن بينهم "أبو الوليد الباجي الذي سمّى كتاباً له ينتمي إلى علم أصول الفقه بـ " المنهاج في ترتيب الحجاج" و قد وصفه بأنّه كتاب في الجدل، حيث يقول: "و من هنا و في هذا الخضم من المسائل الخلافية التشريعية ظهر فن الجدل الذي يستمدُّ حجّيته من القرآن و الحديث و أقوال الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية و المدارس الكلامية بقطع النظر عن الخلاف بالذات الذي يبرز وجوده يفرض الاعتماد عليه، ذلك أنّ هذا الفن يحرص أن يمدّ المجتهد بأحسن المناهج و أحكمها و أدقها و أصوبها".³

(1) ابن الأثير، المثل السائد في أدب الكاتب و الشاعر ج1، ص: 163.

(2) صبح الأعشى ج 2، ص: 215 و ما بعدها.

(3) أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي دار العرب الإسلامي، لبنان، ط 3، 474/473 هـ ، 2000م، في المقدمة ص: 2.

و قد قال في شأن الحجاج: " أنَّ الحجاج يعدُّ من أرفع العلوم قدرًا و أعظمها شأنًا، لأنَّه السبيل إلى معرفة الاستدلال و تمييز الحق من المحال، و لو لا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم"¹، نفهم من كلامه هذا أنَّه يربط مصطلح الحجاج بالجدل لقوله: "لولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ... إلخ، يعني بهذا العلم "الجدل"، يتبيَّن صحة الدليل من فسادة تحريرا و تقريرًا، و تتضح الأسئلة الواردة الصحيحة من المردودة إجمالًا و تفصيلًا و لولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة و المكابرة، وبفضل هذا العلم نَمِيز المستقيم عن السقيم، فالمراسيم الجدلية تفصيل بين الحق و الباطل و بين الخطأ و الصواب، فالجدل الباطل الذي انتشر في كثير من الوسائل ترتبت عليه مفسدات شنيعة و بغت أقوام على أقوام بسبب ذلك، خصوصا أن التأثير على الرأي العام قد خطا فيه أهل الباطل خطوات، ولكنَّه ليس قائمًا على قواعد صحيحة و أسس سليمة، و من ثمَّ لابدَّ من إبراز قواعد "علم الجدل" و المعرفة بها لتمكن من إبطال هذه التموهيات* وذلك الزعم الباطل، فالمجادلة بالباطل تضيع أوقات النَّاس و تشتت أفكارهم فلا يستفاد منه شيء غير المضرة، بحيث: إذا نظر الإنسان في كثير من المجادلات وجد صاحب الباطل يموه على الناس إمَّا برفع صوته أو مقاطعته لخصمه حيث تكون الغلبة بالقوة التي تكون بإسكات الخصم و عدم تمكينه من الكلام، و ليست بالإفهام بالدليل، و لذلك فإن هذه المخاصمات تتعب الأذهان، و تضيع الوقت، و تنتج العداوات، فليس لها ثمرة، بل إن ثمرتها عكسية.

و نجد فكر " بن و هب" فيما يتعلق بالحجاج فقد ربطه هو الآخر بالجدل و المجادلة و هذا ما نجده في كتابه الموسوم البرهان في وجوه البيان"، و قد عرَّف الجدل و المجادلة بقوله: " و أمَّا الجدل و المجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه

(1) أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي، المرجع السابق، ص: 8.

* التموهيات: تموّه: يتموّه: تموؤها الحديث زُخرفَ و امتزجَ حقُّه بباطله، القاموس الجديد للطلاب معجم عربي مدرسي، تأليف علي بن هادية بلحسن البليش، الجيلاني بن الحاج يحيى، تقديم محمد السعدي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 233.

المتجادلون، و يستعمل في المذاهب و الديانات، و في الحقوق و الخصومات و التنصل والإعتذارات.¹، و قد صنف الجدل إلى تصنيفات أخلاقية، ميز بين الجدل المحمود و الجدل المذموم، فأما المحمود فهو جدال بالحق: وهذا مطلوب و وسيلة من وسائل الوصول إلى الصواب و لذلك ورد في النصوص الأمر و الثناء على أصحابه و من ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ²﴾، وقال تعالى ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ³﴾.

و أما المجادلة بالباطل: قصد به الجدل المذموم، وهي التي فقدت صفة أو أدبا من آداب الجدل، و هو الجدل بالحق. لذلك تبرز أهمية علم الجدل من كونه يفرق بين الجدل الممدوح صاحبه، و هو الجدل بالحق و بين الجدل المذموم صاحبه و هو الجدل بالباطل، و قد وردت نصوص كثيرة في الكتاب تشير⁴ إلى هذا النوع من الجدل بالباطل، كما هو في قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا⁵﴾، وذلك أن قوما من المنافقين سرقوا درعا من الدروع، فجاءت طائفة من قرابتهم يجادلون عنهم و يلحقون هذه التهمة بيهودي كان في المدينة. و قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ⁶﴾. و ما جاء في شأن الجدل كثير في الكتاب المبين، و قد اشترط "ابن وهب" في أدب الجدل ما يلي:

- أن يحلم المجادل عما يسمع من الأذى و النبر.
- ألا يعجب برأيه و ما تسوله له نفسه.
- أن يكون منصف غير مكابر، أنه يطلب الإنصاف من خصمه و يقصده بقوله و حجتيه.

(1) أبو الحسين إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتح حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، د ط د ت، ص: 176.

(2) سورة النحل: 125.

(3) سورة العنكبوت: 46.

(4) سورة النساء: 109.

(5) سورة الكهف: 56.

○ ألاّ يستصغر خصمه و يستهين به.

أما "حازم القرطاجني" فإنّ من أهم ما جاء به كتابه "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" أنّه أورد الحجاج على أنّه من أوجه الكلام، إذ يقول: "كما كان كل كلام يحتمل الصدق و الكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار و الاقتصاص و بين الاحتجاج و الاستدلال".¹ و من المظاهر اللافتة للانتباه عند "حازم القرطاجني" إلحاحه على البحث في كفايات التأثير في المتلقي و السيطرة عليه، و جعله يذعن لسطوة النص، و لذا فقد توقف عند سلسلة من العناصر التي يتوسل بها إلى بلوغ الهدف، و هي في مجملها تتمحور حول إستراتيجية التمويه و الإحتيال لأنّ الغرض من الشّع و الخطابة يتمثل في رأي حازم بـ "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه".²

و إعمال الحيلة إستراتيجية لها تقنياتها الخاصة التي يستعملها الشاعر لبلوغ التأثير في المتلقي، و العنصرين اللذين يقوم عليهما الشعر هما المحاكاة و التخيل، فنجد "حازم القرطاجني" يسمح للشاعر أن يلجأ إلى الإقناع أحيانا و الخطيب إلى التخيل أحيانا أخرى، و إنّما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا. كما يؤكد على ضرورة الظروف النفسية للمتلقي و مراعاة المخاطب لحال المتلقي و المستويات المختلفة للجمهور، فالرسالة الموجهة للمستويات التعليمية العليا تختلف عن الرسالة الموجهة لمستويات شعبية قليلة الحظ من التعليم و الثقافة، و للجمهور المحلي الداخلي و للجمهور الخارجي العالمي. مع احترام عادات المجتمع، و تقاليده بالإضافة إلى حسن إنتقاء الخطاب بحيث يجب أن يتميّز بالبساطة و الوضوح و أن نستبعد العبارات المعقدة الغامضة، ليحقق الملقى للخطاب هدفه في التأثير على المتلقي.

1- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الشرقية، تونس، 1966، ص: 63.

2- المرجع نفسه، و قارن في هذا السياق شكري المبعوث: جماعية الألفة 20-21.

و نذكر من أهم طرق الترمويزات عند "حازم القرطاجني" ما يلي¹:

- طي محل الكذب من القياس عن السامع.
 - اغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهاها بما يكون صادقا.
 - ترتيب القياس على وضع يوههم أنه صحيح لاشتباهاه بالصحيح.
 - إلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب بضروب من الايداعات و التعجبات، تشغل النفس عن ملاحظة الكذب و الخلل الواقع في القياس.
- و يعدّ رائد علوم البلاغة العربية " عبد القاهر الجرجاني " أوّل من تفتن إلى الوظيفة الحجاجية للاستعارة، و هذا راجع إلى تأثره بأساليب الحجاج المتعارف عليها . كما يرد على الأقوال، و الآراء، و الادعاء و الإثبات و المعارضة و الدليل و الشاهد و الإستدلال و غيرها، و هذا واضح من خلال كتاباته التي يرسلها على شكل قضايا مدعّمة بالدليل و البرهان و يعرف "الجرجاني" الحجة في معجمه " التعريفات" بقوله: "الحجة ما دلّ به على صحّة الدعوى، و قيل الحجة و الدليل واحد".²

و قال: "الجدل عبارة عن مرأ يتعلّق بإظهار المذاهب و تقريرها".³

و الملاحظ هنا أنّ الحجاج دلّ على معنيين: أولهما القصد، و ثانيهما معنى الإقناع عن طريق الجدال الفكري. فقال فيه "طه عبد الرحمان" إن أوّل من إستخدم آليات حجاجية لوصف الإستعارة هو إمام البلاغيين العرب "عبد القاهر الجرجاني"، فقد أدخل مفهوم الإدعاء بمقتضياته التداولية الثلاثة "التقرير" و "التحقيق" و "التدليل" كما استفاد من في ثنايا أبحاثه من مفهوم التعارض من غير أن يطرحه طرحا إجرائيا صريحا".⁴

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الشرقية، تونس، 1966،

ص:63.

(2) عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، دار الإيمان، الإسكندرية، مصر، د.ط 2004، ص:73.

(3) المرجع نفسه، ص:22.

(4) طه عبد الحمّن، اللسان و الميزان، ص: 313

لقد اعتبر "الجرجاني" حجاجية الاستعارة قائمة على مفهوم الادعاء، فالاستعارة ليست حركية في الألفاظ، وإنما هي حركة في المعاني و الدلالات، و هي ليست بديعا ، بل هي طريقة من طرق الإثبات الذي يقوم على الادعاء.¹

كما تحدث الجرجاني عن المجاز و ما له من أهمية في تحقيق التأثير و الإقناع و دوره الحجاجي الكبير و قد أفاض فيه: " يدور حول قضية مهمة هي عين الحجاج، و أصل الاستدلال و صلبه، فالمتكلم المستعمل للمجاز اضطرته الدعوى التي يدعيها، و التي قصرت الحقيقة دونها، و عجزت اللغة على احتوائها، و يجدر الإشارة إلى أن " الجرجاني" أولى المجاز العقلي اهتماما زائدا عن المجاز اللغوي لأنّ الأول يخاطب العقل و ينبع عن اجتهاد العقل² و ها هنا تكمن طاقته الحجاجية التي تستشير العقليين و الذي يمكن التعويل عليه في بناء النظرية الحجاجية المجازية الإشارات المتتابعة إلى أثر المجاز على نفوس المتلقين. وحدّ التخيل حسب " الجرجاني" أنّه ما يثبت عليه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً و يدّعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها و يقول قولاً يخدع فيه نفسه"³، و كان بالأحرى أن يقول يخدع به غيره على أن التخيل عنده غير الاستعارة فهذه سبيلها " سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله و هو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً يدعي دعوى سبح في العقل" و هكذا أخرج "الجرجاني" الاستعارة من دائرة التخيل، و لاحظ كثرة ورودها في القرآن الكريم و عدم ورود التخيل فيه، لكون التخيل هو الإبهام و المغالطة و الخدع.

فإعجاز القرآن الكريم لا يمكن أن يكون بنظمه كما قال "الجرجاني" لأن النظم جمهوره ضيق، و إنّما هو ما اشتمل عليه من ضروب الحجاج، فالحجاج جمهوره مهما ضاق فهو

(1) ينظر أحمد أبو زيد، الاستعارة عند المتكلمين، مجلة المناظرة، العدد 4 ماي 1991، ص: 46-47.

(2) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 373. "

(3) عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، دار الإيمان، الإسكندرية، مصر، د. ط 2004، ص: 239.

كوني دائماً. و الخطاب الحجاجي هو الذي يربط بين الجمهوريين الخاص و الكوني، و الخطاب القرآني موجه إلى الجمهوريين في الوقت نفسه، نذكر على سبيل المثال الجمهور الضيق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ...﴾ و أما الجمهور العام ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ...﴾ الكافرون و المؤمنون معا و مثل اسلوب العدول في القرآن الكريم بجميع أنواعه و على أصعدة الكلمة و التركيب و الصورة و الوسيلة التي حقق بها القرآن هذه المرامي الخطابية.

لقد عرضنا بإيجاز نظرة العلماء المسلمين القدامى و البلاغيين العرب إلى مفهوم الحجاج للذين استعملوا المناظرة و الجدل و البيان، و الاستدلال و البرهان، المراء، و الحوار و الإقناع، و الحجاج كمتراذفات للمعنى نفسه، و ذلك أن الفاعلية الحجاجية يراد منها عندهم مغالبة المخالف في المذهب و الرأي بإظهار الحجّة. فنلاحظ في كتب التراث الإسلامي تداول مصطلح الحجاج أو الإحتجاج أو المحاجة بكثرة في شتى المجالات و عدّة علوم، و خاصة في المسائل ذات الطابع الفكري و الفلسفي التي تختلف و تكثر فيها وجهات النظر و تعدد التأويل لذلك وظّفوا مصطلح الحجاج في علوم كثيرة كالنحو، اللّغة، و الحديث و الفقه و الأصول و علم الكلام.

كان دور البلاغة العربية القديمة كما رأينا في أغلب تعاريف البلاغيين القدامى يقوم على الافهام و التأثير، فأهداف البلاغة تتركز في مجملها في الوصول إلى القواعد و النماذج التي يستطيع بها المتكلم أو الخطيب أن يؤثر في جمهوره و يحركه بحججه المقنعة و المبادئ التي ينبغي على المخاطب التقيد بها التي ترتبط بآداب الحوار و الخطاب و الكلام لإذعان المخاطب و استمالاته.

و قد اتضحت أهمية البلاغة في تحقيق الحجاج في سائر الخطابات الإنسانية سواء كانت البلاغة مقصودة مستقلة في عملية الحجاج أم كانت عرضية تزيد في القوة الإقناعية

و التأثيرية للخطاب هذا ما ترجم التوجه العجيب إلى البلاغة لاستكناه ما فيها من أساليب تأثيرية و أدوات إقناعية، و لقد اشتهرت أساليب بلاغية عديدة تحوي طاقات حجاجية معتبرة إلى درجة تسميتها بالاستدلال الحجاجي في البلاغة العربية، و سنتوسع في هذه الفكرة و نبين الأساليب و الآليات البلاغية الحجاجية في دراستنا لسورتي "الكهف" و "القصص".

فالقرآن الكريم من أبرز العوامل التي ساعدت على تطور البلاغة العربية و نشأة التأليف فيها، كما لعبت المؤشرات الأجنبية دورا لا يستهان به في تطوير الدرس البلاغي، كما لعب المؤشر اليوناني دورا بارزا من خلال القراءات التي تناولت كتب أرسطو بالترجمة و الشرح، و تجليات ذلك على التأثير في المصنفات العربية بدءا من "مجاز القرآن" لـ "أبي عبيد" وصولا إلى "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" لـ "القرطاجني"، و قد بدأ من خلاله الوعي بمفهوم الحجاج ذلك في بروز بلاغة جديدة عمادها البيان و الحوار و الحجاج.

2.1/ الحجاج عند الغرب قديما:

حين نفحص الجهود السابقة، نجد أنّ الفلاسفة اليونانيين أمثال "أفلاطون" و "أرسطو"، قد اشتهروا بتقديمهم بعض الأساليب الحجاجية الماهرة، و التي أصبحت من المكونات المحورية في عمليات الحجاج من بعدهم، و سنحاول التعرض لأهم ما قدمه كل منهما في شأن الحجاج.

1.2.1/ الحجاج عند أفلاطون:

كانت بداية أفلاطون في ممارسة الحجاج من خلال الصراع الذي نشأ بينه و بين السوفسطائيين و من هذا المنطلق يقول: "أنا لا أتصور شرا يستطيع أن يتعلمه إنسان أعظم من رأي فاسد". و هنا يشير إلى فساد أسلوب الدحض عند السوفسطائي الذي يوقع

المحاور في مضيق و عندما يسعى إلى إرباكه و خداعه بإلقاء وابل من الأسئلة عليه و الطلب منه الإجابة بنعم أو لا، يقوم بتخجيل الخصم و ترذيل قوله و الاستهزاء به و قطع كلامه، و عندما يعجز عن ذلك يفحمه و يعلن إنتصاره عليه و يأمره باتباع الرأي الذي ارتآه¹. فهو بذلك ينبغي المغالطة و التلاعب بفكر الآخر و بعواطفه و اعتبر ذلك "ممارسات تخدع الانسان، فهذه الممارسات جعلها تحت اسم جامع هو التملق، فهذه الكلمة تفيد اللذة و الخداع، و في رأيه أن الخطابة السوفسطائية هي قول يتناوله الظاهر لا الحقيقة و يقصد تحقيق اللذة لا الخير"². فذكر "أفلاطون" في تفحصه لموضوع الخطابة أن الإقناع نوعان إقناع يعتمد العلم و اقناع يعتمد الظن، و الإقناع الثاني في رأيه هو موضوع الخطابة السوفسطائية. فالعلم يقوم على مبادئ صادقة و ثابتة فالإقناع من هذه الوجهة يكون مفيد يكتسب الانسان منه معرفة، في حين نجد أن الظن يقوم على الممكن و المحتمل، فهو لا يكسب معرفة بل ينشئ اعتقاداً³.

فإقناع الطرف الآخر يستوجب على الملقى جملة من آليات يتقيد بها نحو: التحلي بالأخلاق الطيبة و الثقة بالنفس و مصداقية المعلومات و الإتيان بحجج واقعية ثابتة، و يمكن اللجوء إلى استمالة العواطف، و تجيش الوجدان في حالة ما إذا لزم الأمر أي التلاعب بعقله ترهيباً و ترغيباً فيما يخص القضايا الاجتماعية التي يستوجب تصحيحها مثلاً.

2.2.1/ الحجاج عند أرسطو:

يعتبر أرسطو العمدة في عملية الحجاج، فهو المرجع الأساسي لمن جاء بعده غرباً و عرباً. و لقد تناول الحجاج من زاويتين متقابلتين، من زاوية بلاغية جدلية، فمن البلاغة

(1) الدكتور زهير الخويلدي، الخطابة الجديدة، الإقناع بدل المغالطة، عرب تايم مقالات منشورة.

(2) ينظر هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص: 63.

(3) المرجع نفسه، ص: 64.

يربط الحجاج بالجوانب المتعلقة بالإقناع، فكانت البلاغة عنده خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتين، التأثير و الإقناع، و يتوجه إلى الجمهور السامع قصد توجيهه أو إقناعه إيجابا أو سلبا، و يتبين أن الإقناع يحدث في الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة، وذلك بفهم انفعالات و أهواء و دراسة الطبيعة البشرية للطرف الآخر و إن كان قادرا على التفكير المنطقي حتى يقدم له أقيسة و براهين تثبت صحة كلامه و تعصمه من الوقوع في الزلل.

و من الزاوية الجدلية يعتبر الحجاج عملية تفكير تتم في بنية حوارية و تنطلق من مقدمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة ، فهاتان النظريتان المتقابلتان تتكاملان في التحديد الذي يقدمه أرسطو لمفهوم الخطاب، أن يبينه انطلاقا من الحضور و من الرغبة في الإقناع و يحدده في ثلاثة أنواع: الاستشاري، القضائي، القيمي¹. و قد ميّز أرسطو بين ثلاث مستويات من الحجج:

(الايِتوس، الباتوس، اللوغوس) في علاقتها بالأفعال الثلاث للفعل الخطابي: الخطيب، المستمع، الخطاب.

الايِتوس: يصف الخصائص المتعلقة بشخصية الخطيب و الصورة التي يقدمها عن نفسه.

الباتوس: و يشكل مجموعة الانفعالات التي يرغب الخطيب إثارتها لدى المستمعين.

اللوغوس: و يمثل الحجاج المنطقي الذي يمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي

فيرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال و البناء الحجاجي.²

(1) ينظر محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغة و المنطقية ، دار الثقافة ص:15.

(2) ينظر محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغة و المنطقية ، دار الثقافة ص:18.

2/ الحجاج حديثاً:

1.2/ الحجاج في الدراسات الغربية الحديثة:

لقد تغير المنظور القديم للحجاج بفعل ما جاءت به الدراسات الغربية الحديثة بتظافر جهود كل من "بيرلمان" و "تيتكاه"، بحيث يهدف كل منها إلى تحقيق الاقتناع و التسليم، و رسم معالم دقيقة لدرس جديد مستقل بموضوعه، ينطوي على نضج نظري يخرج من دائرة النظريات الفلسفية، بإعادة النظر في البلاغة اليونانية القديمة و التقاليد البلاغية القديمة، و دراستها دراسة عملية لسانية.

1.1.2/ الحجاج عند "بيرلمان" و "تيتكاه".

لقد أسهمت جهود كل منهما في الكشف عن جوانب عميقة في الدرس البلاغي المعاصر بوصفهما تأملا في اللغة و الفكر و ذلك من خلال كتاب "بيرلمان" La « nouvelle rhétorique - 1958- و الذي ترجمه عبد الله صولة، مثالا بالخطابة الجديدة، و صلاح فضل بالبلاغة الجديدة، يعرف المؤلفات موضوع نظرية الحجاج بقولهما؟ " موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد في درجة ذلك التسليم"¹.

و كتاب آخر بالإشتراك مع "تيتكاه": " دراسة الحجاج

« Traité de l'argumentation » فالغاية التي يسعى المؤلفان إلى تحقيقها من خلال هذه الدراسة: " أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو تزيد في درجة الاذعان فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الاذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة² فمؤلفهما إذن يصنف الحجاج و ينزله في صميم التفاعل بين الخطيب

1- عبد الله صولة الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته، ص: 301، نقلا عن T.de L'argumentation p 54

2- نفس المرجع ج 1، ص: 35

و جمهوره، فيستند "برلمان و تيتكاه" في حدود ما فهمناه من التعريفين السابقين إلى صناعة الجدل من ناحية و صناعة الخطابة من ناحية أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئاً ثالثاً لا هو بالجدل من حيث هو فن يتوسل المشهورات أو المسلمات لإلزام الخصم فيظهر من حيثهما عن التأثير الذهني في المتلقي و عن تسليمه بما يقدم له و إذعانه لما يعرض عليه إذعانا نظرياً مجرداً مجاله العقل و الإدراك، و أما الخطابة فتظهر من خلال إلحاحها على فكرة توجيه العمل والاعداد له والدفع اليه¹.

وقد قام كل من برلمان و تيتكاه بعملية استقراء للوصول إلى خصائص الحجاج الذي كان سائدا قبلهما فوجدا: "أنّ الحجاج عند بعض الفلاسفة و منهم "باسكال" حجاجان :

الحجاج الأول قوامه العقل، و هو حجاج فيلسوف يتجوه إلى جمهور ضيق، يرمي من وراءه إلى اسكات صوت الهوى فيه، و إلى جعل العقل قوام الاستدلال فهو حجاج لا شخصي ولا زمني، و الحجاج الثاني يقصد دغدغة العواطف و إثارة الأهواء، استنفاراً لإرادة جمهور السامعين و دفعها إلى العمل المرجو إنجازاً مهما تكن الطرق الموصلة للإقناع بذلك العمل غير معقولة و غير منطقية"². إذن فالهدف من الحجاج هنا إما الإقناع la persuasion أو الاستدلال و الهدف الذي يرمي إليه "برلمان و تيتكاه" فهو الإقناع الناتج عن دراية و وعي بجميع معطيات الخطاب. و تركز نظريتهما على مبدأ الاحترام بين الخطيب و جمهوره (دون تحديد نوع الجمهور) و ضرورة الاعتراف بآراء و أفكار هذا الجمهور، و إن كان لا بد من تغييرها ... طريق مخاطبتها على درجة رفيعة من الرقي الفكري، و الابتعاد تماماً عن العنف و الخداع و التلاعب بالمشاعر، فالمصداقية في الخطاب أكثر عنصر يساعد الخطيب لبلوغ الهدف من الإقناع، و على هذا فأنواع عدّة من الحجاج لا يمكن أن تدخل عند "برلمان و تيتكاه" على أنّها

1- عبد الله صولة الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت- لبنان ط1 2001

عن منشورات العلوم الإنسانية- تونس، ص: 28.

2- عبد الله صولة الحجاج، أطره و منطلقات ص 62

حجاج و بالتالي نلمح تقلص حدود الحجاج عندهما، و يمكن القول أنّ الحجاج لا يمكن أن تدخل عند برلمان و تيتكاه على أنّها حجاج و بالتالي نلمح تقلص حدود الحجاج عندهما، والحجاج حسبهما يتميز بخمسة ملامح رئيسية هي:¹

- أن يتوجه إلى مستمع .
- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.
- مسلماته لا تعدو أن تكون منطقية بمعنى الكلمة.
- ليست نتائجه ملزمة.
- أن مسلماته لا تعدو كونها احتمالية

2.1.2/ الحجاج عند ماير:

إن وجهة ماير كانت مخالفة و مغايرة عن أستاذه بيرلمان لا سيما نظرية المساءلة، و يعتبر أحد منظري البلاغة المعاصرة التي أحدثت دراسته الأخيرة طفرة نوعية في تحليل الخطاب في مجال التواصل و الإقناع، انطلاقاً من و جهة نظر فلسفية تعتمد البعد الافتراضي وتستند إلى الاختلافات الاشكالية في التأويل و الفهم². و قد استفاد ماير من مختلف العلوم المعاصرة للتواصل و النظريات المعرفية و الهرمونيكا و الظاهراتية في قراءة البلاغة الكلاسيكية و الجديدة معا فتمكن من ابراز المكونات الجديدة للخطاب الحجاجي البلاغي من خلال تصور جديد منفتح على العلوم الإنسانية و الفلسفية بالخصوص³.

و قد عرف الحجاج بقوله: " الحجاج هو دراسة العلاقة بين ظاهر الكلام

و ضمنه"⁴.

(1) حمد علي القاضي ضمن اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 401.

(2) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير ص:203

(3) نفس المرجع ص 205.

(4) الحجاج في القرآن الكريم ص 37.

فالحجاج عنده يقوم على الصريح و الضمني. و يبقى أهم ما رصده في العملية الحجاجية هو ربطه بنظرية المساءلة فالحجة عنده هي عبارة عن جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدّر يستنتجه المتلقي ضمناً من ذلك الجواب، أو يمكن أن نقول أنّ الحجة هي عبارة عن جواب لسؤال ضمني يستخرج من الجواب نفسه¹. فالسؤال يحوي مشكلة، و هذه المشكلة تتطلب إجابة. و يقوم المتلقي بطرح أسئلة من خلال الإجابة المقدمة له المصريح بها "الحجة" أي الأدلة التي يعطيها الملقى، و تساعد المتلقي في اكتشاف السؤال معطيات مقامية و هذا ما يسمى بالحجاج الضمني " الحجاج و نظرية المساءلة":

قام "مايير" من خلال نظرية المساءلة بوضع قواعد نظرية ذات بعد فلسفي تكمل مجهودات باحثين آخرين لأبعاد اللغة و وظائف الكلام و هي "جهود تنظيرية في مجال البلاغة، تبقى متينة الإتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الإرتباط و بالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتضافر المقاصد التداولية' (ظروف انجاز الخطاب) و التأويلية (علاقة السؤال بالجواب) و البلاغة الحجاجية أساساً في تحقيقه.

(1) محمد علي القاضي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم 347 .

3.1.2/ الحجاج عند "ديكرو O.Ducrot" و "أنسكومبر J.C.Anscomber":

لنا أن نتحدث عن الحجاج عند هذين الباحثين في مؤلفهما المشترك « L'argumentation dans la langue » الحجاج في اللغة "، فالحجاج عندهما كامن من حيث بنيته في اللغة ذاتها، كما يدل ذلك عنوان كتابهما، فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية، كما هو الشأن عند "برلمان و تيتكاه"، فالحجاج عندهما حجاج لساني بحت.

فيرى ديكرو أن كل قول يحتوي على فعل إقناعي، فأن تتكلم يعني أنك تحتاج، (كل قول = حجاج)، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجية، فالحجاج عنده علاقة دلالية ترتبط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة¹، فالحجاج عنده "إنجاز لعمليتين هما عمل التصريح بالحجة من جهة و عمل الإستنتاج من جهة أخرى، وحسب "ديكرو" أن المتكلم قد يصرح بالنتيجة أو يخفيها، فيستلزم على المتلقي إستنتاجها من بنيتها اللغوية، فوظيفة الحجاج عندهما تكمن في التوجيه حيث اعتبر "ديكرو" في كتابه السلال الحجاجية أن هدف الخطاب الحجاجي L'orientation " يتمثل في أن يفترض على المخاطب نوعان من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن أن يتوجه فيه"².

بناء على هذا إستنتاج أن على المرسل التقيد بأمور من أجل تحقيق التأثير، و ذلك بحسن إختيار الحجج بما يوافق و يناسب السياق، ثم صياغتها في قالب لغوي ملائم ليخاطب بها عقل المرسل إليه، و هذا تأكيد على حضور وظيفة

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، ط 1، 2006/1426، ص: 14، 16.

(2) O. Ducrot, Les échelles argumentatives, Edition de minuit. Paris , 1980, P :6

التفاعل في اللغة، و من هنا نخلص إلى ميزتين أساسيتين تميزان رؤية ديكر
الحجاجية:

-التأكيد على الوظيفة الحجاجية للبنى اللغوية.

-سمة الخطاب التوجيهية.

كما ينطلق من فكرة مفادها: " أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"¹.
و بالأخير يمكننا القول إنّ أعمال هذين المؤلفين هي أعمال بنيوية تتعامل و تهتم
ببنية النصّ الخطابي، ولا تتعامل مع خارجه.

2.2/الحجاج عند المحدثين العرب :

من بين المحدثين العرب نجد الأستاذ طه عبد الرحمن حيث يعرف مصطلح الحجاج
" بأنه كلّ منطوق موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها"²
نفهم من هذا التعريف أنّ الحجاج خطاب و لكن ليس كأى خطاب، فهو ما اقترن فيه
قصدان، قصد الإدعاء و الذي اختص به المتكلم، و قصد الاعتراض الذي هو من حق
المستمع، و بيّن ذلك في وضع مفهوم أدق و أوسع في قوله:

" لا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة
المدّعي ولا مخاطب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة المعترض"³

إذن يتبين لنا من تعاريف طه عبد الرحمن أنّ الخطاب الحجاجي يتعلق بالتعامل
و أنّ المنطوق به يستحق أن يكون خطابا، هو الذي يقوم بتمام المقتضيات التعاملية
الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج.

و بهذا كان الحجاج وسيلة للتفكير و التواصل مع الآخر و التفاعل بين طرفين من
أجل جلب منافع أو دفع مضار، وهذا ما يمنح الخطاب الحجاجي أبعادا عملية.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، ط 1، 1426/2006، ص: 14، 16.

(2) طه عبد الرحمن اللسان و الميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1998، ص: 226.

(3) بن أحمد عالم فايزه، الحجاج في اللسانيات التداولية - دراسة لنماذج من القرآن الكريم، جامعة مستغانم، الجزائر، ع
75، السنة 19، ربيع 2012 م / 1433 هـ.

و جاء في كتاب " تكوثر العقل " لطفه عبد الرحمان فيما يخص الحجاج ما نصه:
 "كلما و قفنا على لفظ الحجاج" تسارعت إلى أذهاننا دلالاته على معنى " التفاعل " حتّى أن
 ما سواه من مظاهر التفاعل، إن تبادلًا للتأثير أو تناقلًا للتغيير أو ترابطًا وظيفيًا أو حتّى
 تجاذبًا وجدانيًا، تبدوا لنا موضوعة على قانونه و مفهومة على مقتضاه، أو قل إنَّ الحجاج
 أصلاً في كل تفاعل كائننا ما كان¹. فميزة الحجاج عنده لا تنحصر في التفاعل الفكري
 أو اللغوي على أساس أنَّها تتقل معرفة أو تحدث تبادلًا في الأفكار، بل حتّى التفاعل
 الوجداني إعتبره تفاعلاً حجاجياً يخضع لقوانين الحجاج و مقتضياته، و ذلك حين يحدث
 تعارض في الرأي، ينشأ الحجاج ليقوم حدود في الفصل بين قبول الرأي أو دحض له،
 و هنا تكمن صفة التفاعل على اعتبار أنَّها تحقق التقارب في الحوار الحجاجي و تحقق
 تأثيراً ما في الطرف الآخر.

و يرى الحواس المسعودي "أن الحجاج هو خطاب حجاجي موجه، و كل خطاب
 يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة يعدّ حجاجياً². و عليه و من طريق المفاهيم التي
 طرحت عن طريق الحجاج عند علماء اللغة القدامى و المحدثين تكون وظيفة الحجاج طرح
 الحجج التي تضمنت النفاذية للخطاب اللغوي، و من ثمَّ حصول الإقناع الفعلي بالقضية
 المطروحة، و هذا يعني توظيف الآليات التي يختار الاعتماد الأولي نحو التغيير و بناء
 الموقف المغاير³، و نجد "ابن عاشور" قد ربط الحجاج بمعنى الحدل الذي هو القدرة على
 الخصام لإقناع الغير و قسّمه إلى جدل محمود و جدل مذموم، كما جعل معنى الحجاج
 بمعنى المخاصمة و تكون هذه المخاصمة بباطل و ليس بحق. و يتضح ذلك أكثر في
 منظور عبد الله صولة الذي يقول أن: " الحجاج ثلاثة مفاهيم على الأقل: مفهوم يجعله

(1) طه عبد الرحمان اللسان و الميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص:226.

(2) ينظر البنية الحجاجية في القرآن الكريم' سورة النمل نموذجاً، ص. 33

(3) المرجع نفسه ص 24.

مرادفا للجدل و نجده خاصة عند القدماء و بعض المحدثين العرب، و مفهوم يجعله قاسما مشتركا للمفهومين السابقين، و ذلك لأنّ الحجاج قد أخذ شيئا فشيئا في الإستواء مبحثا فلسفيا قائم بذاته في العصور الحديثة مستقلا عن صناعة الجدل من ناحية و عن صناعة الخطابة من ناحية أخرى¹.

فالتغيير الجوهرى الذى طرأ على مفهوم الحجاج هو ما جعل عبد الله صولة يبحث فيما اشتمل عليه القرآن من حجاج بعيدا عن أية مجازفة، ذلك لانفتاح القرآن الدائم على المخاطبين بحيث يأمرهم و ينهاهم، يسألهم و يجيبهم صراحة و ضمنا. و سنحاول بدورنا التطرق إلى دلالة و مفهوم الحجاج في القرآن الكريم و نبين أوجه التمايز و التشابه و التداخل بين الحجاج و مفردات أسرته المفهومية.

(1) عبد الله صولة الحجاج في القرآن الكريم من أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي بيروت، ط1، 2001، ص: 8-9

المبحث الثاني: الحجاج في القرآن.1/ دلالة الحجاج في القرآن الكريم:

نستهل بمقولة الشيخ "محمد الطاهر بن عاشور": "إنَّ الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها، فإصلاح كَفَّارها بدعوته إلى الإيمان' (..) و إصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم و تثبيتهم على هداهم و إرشادهم إلى طرق النَّجاح و تزكية نفوسهم و لذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدّة الدّعوة"1.

فأنزل الله جل جلاله القرآن الكريم بلسان عربي مبين على محمد صلى الله عليه وسلم لإبلاغ البشرية بالرسالة الإسلامية و مخاطبتهم لما للقرآن من حجج ردا على خطابات من كفر منهم ، و ما يعتقده المشككون في الدعوة، و لتدعيم الرسالة النبوية جاء القرآن الكريم خطابا حجاجيا، تتعدّد مظاهر الحجة فيه، إذ يراد به الإجابة و الإقناع و الإبلاغ باستخدام الدلائل العقلية و العلمية و غيرها بما له من مسارات و مؤشرات، فيحوي أشكالا من الأساليب التي تروي الحوار و تهدف إلى الإقناع بالبراهين و الأدلة العقلية و الكونية الفطرية، جمعت كلها في الحجة البالغة، قد لا تكون واضحة بينة و إنّما تلتمس من خلال الملاحظة و التأمل الدقيق في الآيات الكريمة، و المتمعن في القرآن الكريم يرى أنّ الحجاج يأتي في أجواء من المراوغة و الكبر و المخالفة الناشئة عن الخصومة و عناد كل من الكفّار و المشركين و المعاندين للرسالات، فبالنظر إلى السياقات و الموضوعات القرآنية نلاحظ أنّ الحجاج فيه جاء في ثلاث مسارات دلالية:

○ حجاج قاد إليه الكفر و النفاق و الهوى و الحظوظ النفسية و طمس البصيرة.

○ حجاج غايته الاسترشاد و النّظر و الاعتبار.

○ حجاج هدفه إظهار الحق بالمناظرات و المحاولات التي تسعى إلى تبني وجه الصواب

(1) تفسير التحرير و التنوير، ج1، ص: 81 (أورده عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، من خلال أهم مظاهره الأسلوبية، ص:44)

فالقُرآن الكريم مملوء بحكاية المجادلات و المحاورات و القصد من ذلك كله تعليم من الله تعالى السؤال و الجواب و المجادلة في الدين لأنّه لا يظهر الفرق بين الحق و الباطل إلاّ بظهور حجة الحق و دحض حجة الباطل¹.

و عليه فرد الأقوال الضعيفة في الفقه الإسلامي خاصة لا غضاضة فيه، هذا الذي اضطلع عليه في عرف العلماء "الجدل الفقهي بشرط أن يكون من جنس الجدل المحمود الذي الغرض منه إظهار الصواب و الحق ولا الجدل بالباطل القائم على الانتصار للنفس أو المذهب أو لأحد من الخلق، فإنّ هذا الأخير كما قال الإمام مالك رحمه الله ينشئ المرء، و يذهب بنور العلم من القلب، و يقسي القلب و يورث الضعف"²

و لذا مناظرة الأكفاء و معاشرة النظراء تلقيح للعقول و تهذيب النفوس، و تدريب لِمآخذ الأحكام"، كما قال أبو بكر الطرطوشي المالكي رحمه الله³ ثمّ إنّ النصّ القرآني جاء تغييراً للوضع، و حلاًّ لمعضلة، و نبذا للعنف و التطرف الذي هو عكس الحجاج، و بما أنّه يهدف إلى تغيير وضع، فهو حجاج لا مرء لأنّ الحجاج عمل الغرض منه تغيير وضع سائد بتدعيم القول بالحجج، و عليه فإنّ الإحتجاج القرآني يحتل الصدارة. يقول أحد الباحثين العرب: " إذ نص علماء اللّغة صراحة على أنّ القرآن سيّد الحجج"⁴.

و لعل هذا دفع أكثر النّحاة إلى الإستشهاد بالقرآن الكريم، بحيث نلاحظ في الدراسات و النصوص العربية الإستشهادات القرآنية كونها موثقة و صادقة، فالقرآن معجز بأساليبه و بألفاظه و معانيه ولا يشبه كلام البشر، لا هو بشعر ولا هو بنثر على حد قول

(1) الجامع للقرآن الكريم الإمام القرطبي رحمه الله 286/3.

(2) جامع بيان العلم و فضله للإمام عبد الله المالكي ر 212 في المقام نفسه يقول ابن فرحون المالكي رحمه الله: اعلم وفقنا الله و إياك أنّ المرء و الجدل يورث العداوة و البغضاء و يبعث على كشف العورات و الحمية، الزاهر في بيان ما يجتنب من الصغائر و الكبائر.

(3) سراج الملوك، ص: 150.

(4) محمد عيد، الاستشهاد و الاحتجاج باللّغة، رواية اللّغة و الاحتجاج بها ضوء علم اللّغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1988 م، ص: 101.

طه حسين، و ايضا ليقينية مقدماته و نتائجها كما تقوم الأدلة الخطابية فيه على اثبات الحق بأدلة قطعية على حد قول ابن رشد.

و قد تعددت مظاهر الاقناع في القرآن، فهو اقناع مبني أساسا على اللغة، و بالعودة إلى مضمون الكتاب و أسباب النزول، لكونه جاء ردا لخطابات (علنية كانت أم ضمنية) يمكننا اعتبار القرآن خطابا حجاجيا، فهو يطرح أمرا أساسيا يتعلق بوحداية الله عزّ و جلّ و يدعو إلى الإيمان به، و بذلك يقدم الحجج بمستويات متعددة و مختلفة، كما يعتمد بالتذكير بواسطة الحجج، و لعلّ من أبرز و أسهل أساليب التذكير و أطرافها و أخفها على الأسماع و أوصلها للرسالة في إستنباط الأحكام بما تحويه من إرشاد و وعظ و توجيه و متعة و عبر و حكمة، نجد القصص القرآني و التي يعتمدها المدرسون لتدعيم دروسهم، و المشايخة للاستدلال على فتوَاهم. و الباحثين في دراستهم لتحقيق مصداقية بحوثهم كحجج جاهزة، تكسب النصّ قوة استدلالية قطعية إضافة إلى الحجج المصطنعة التي تتمثل في أخلاق الخطيب و شخصيته، و كذا أحوال السامعين و طبقاتهم المختلفة في منظور أرسطو. و بالرغم من مدى مصداقية و محاجية الخطاب القرآني النموذج الأمثل لجلّ أنواع الخطاب، و يقينية نتائجها و أدلته القطعية إلاّ أن هناك من يعزفون عن الاقتناع به، و الرافضون له، فحسب قول الحواس مسعودي في هذا الشأن: "يرجح تأكيدنا على الصفحة الحجاجية للقرآن إلى كون المتقبلين لهذا الخطاب كثيرا و هم من مستويات مختلفة، و كذلك الرافضون له و العازفون عنه كثر و لهم في غالب الأحيان حججهم - رغم ضعفها- و هؤلاء أيضا من مستويات مختلفة، فقد تفتتحت أصناف ولا تفتتحت أصناف أخرى"¹، و من هنا نفهم أن عملية الإقناع تبدأ من المقتنع من حد ذاته فإن كان جاحدا معاندا، لا يتحقق الإقناع و ذلك رفضا للإذعان لرأي الآخر و إن تحقّق من مصداقية رأيه

(1) الحواس مسعودي. البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، مجلّة اللغة و الأدب، جامعة الجزائر، أكتوبر،

و حقيقة ما يقول، و هو يدرك ذلك إنّما جحوداً منه، و إن كان القرآن نزل بلغة العرب التي هي فكر الأمة و ثقافتها و أنّها تحمل المقوّمات التي يتشكل منها عالم خطاب الأمة، و كما أن هدف القرآن الكريم إصلاح الناس و إخراجهم من الظلمات إلى النور، و إعجازه الذي يكمن في نظمه و قدرته على التأثير في المستمعين، كلّ هذه الصفات تجعل القرآن خطاباً حجاجياً بالدرجة الأولى، و استعمل الحجاج في القرآن الكريم بدلالة مفردات تجمعها علاقة الترابط و التقابل، فبعضها يتشابه و يتداخل في وجه من الوجوه، و التي تصبّ المصبّ نفسه، و بعضها الآخر يختلف، فهي متقاربة و مختلفة في نفس الوقت، متناثرة في غير آية من آيات القرآن الحكيم، و نذكر منها الجدل، البرهان، الإقناع و المراء و النزاع و التحاور و المناظرة و الخصام، و المناقشة، و سنحاول ما أمكن لنا أن نناقش هذه الألفاظ و نبحث عن دلالتها، و أوجه تداخلها، و نبرز الفرق بينها.

لقد وردت في الكتاب المبين آيات تحمل مصطلح الحجاج، استخدمته لمعنيين "للإشارة إلى مخاصمة المشركين لأنبيائهم في دعوتهم التي جاؤوا بها، و من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾¹ و قوله أيضاً: ﴿ وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَتْ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً ﴾²، و في معنى البرهان قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾³، و قوله عزّ و جلّ: ﴿ وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾⁴، و لما كان حسن الجدل يقضي نزع الخصومة و الموقف العدائي. لذا فإن الجدل ليس فيه المحاجة، لكن الحجّة بمعنى البرهان، هي من أدوات الجدل بالحسنى لأن البرهان أسهل الطرق لإستمالة العقل السليم نحو الدّعوة الصحيحة، لذا لا بد من الاستعانة بالحجّة البالغة، و لكن بعيداً عن المخاصمة و النزاع .

(1) سورة البقرة، الآية 28.

(2) سورة الاشورى، الآية 16.

(3) سورة الأنعام، الآية: 149.

(4) سورة الأنعام، الآية: 83.

1.1/ الحجاج و مرادفاته الدلالية في القرآن الكريم:

نجد المصطلحات التي تتداخل و تختلف و مصطلح الحجاج نجد:

1- الحجاج و الجدل:

ورد مصطلح الجدل في الكتاب المبين في كثير من آياته، و من ذلك قوله تعالى:

﴿وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ظَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾¹.

الجدل لغة: قال ابن فارس ' (الجيم و الّام أصل واحد و هو من باب استحكام الشيء
يكون فيه و امتداد الخصومة و مراجعة الكلام"².

و قال ابن النير "الجدل مقابلة الحجّة بالحجّة و المجادلة: المناظرة و المخاصمة"³.

الجدل اصطلاحاً: حسب ابن حزم: " إخبار كل واحد من المختلفين بحجّته و بما يقدر أنّه
حجّته قد يكون كلاهما مبطلا و قد يكون أحدهما مبطلاً و الآخر محققاً إما في لفظه و إمّا
في مراده أو في كليهما. ولا سبيل أن يكونا معا محقين في ألفاظهما و معنيهما"⁴، كما نجد
آخرون عرفوه " أنّ الجدل عبارة عن قدرة كلامية و براءة حجاجية"⁵.

و إذا كان الحجاج - حسب ابن منظور - هو النّزاع و الخصام بواسطة الأدلة
و البراهين و الحجج، فهو بذلك مرادف للجدل لأنّ حد الجدل حسب: " مقابلة الحجّة
بالحجة و هو رجل محجاج أي جدل"⁶.

(1) سورة النحل، الآية: 125

(2) معجم مقاييس اللّغة (433/1).

(3) النهاية في غريب الحديث (407/1).

(4) الإحكام (45/1)

(5) محمد التومي، الجدل في العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص: 14.

(6) ابن منظور، لسان العرب، المجلد 2، ص: 28.

و جاء في معجم الفروق " الفرق بين الجدل و الحجاج أنّ المطلوب بالحجاج هو ظهور الحجّة، و إنّ المطلوب بالجدال: الرجوع عن المذهب، فإنّ أصله من الجدل و هو شدة القتل، و منه الأجل لشدة قوّته من بين الجوارح¹.

و يفرق صولة في كتابه "الحجاج في القرآن" هذين المصطلحين أنّ الحجاج أوسع من الجدل كما أنّ الجدل في علوم القرآن ألصق بالصناعة المنطقية، و النصّ القرآني لا يستجيب لفكرة مرادفة الحجاج للجدال أو للمذب الكلامي .

و إذا كان الحجاج أوسع من الجدل فإنّ كل جدل حجاج و ليس كل حجاج جدل و لذلك كان الحجاج القاسم المشترك بين الجدل و الخطابة باعتبارها قوّتان لإنتاج الحجج . كما يقول أرسطو، إلّا أنّ نوعية الحجج تختلف بينها، و إذا كانت الحاجة هي الطريقة التي تطرح بهذه الأدلة، هذا يعني أنّ أدلتها كثيرة، كالاستقراء و القياس الظاهر و هذا مجاله الجدل و المثل و الضمير و مجاله الخطابة و من ثمّ يمكن القول أنّه يوجد على الأقلّ حجاجان، حجاج جدلي و حجاج خطابي، فالجدلي تمثله في التراث الإسلامي مناظرات علم الكلام أو المذهب الكلامي في القرآن أو الاحتجاج النظري في القرآن اجتهدت فيه كتب علوم القرآن، أما الخطابي، فهو ما عرض له أرسطو في كتابه "الخطابة" و هو حجاج موجه إلى جمهور ذوي أوضاع خاصة و هو يتعدى هذا التأثير العقلي إلى ما هو عاطفي لإثارة المشاهد و الإنفعالات و إرضاء الجمهور و استمالاته، و لو كان بمغالطته و خداعه و إيهامه بصّة ما يقول.

2/ الحجاج و الإقناع:

1.2/ لغة: جاء في لسان العرب "لأبن منظور": قنع بنفسه قنعا و قناعة = رضي.

و المقنع (بفتح الميم) العدل من الشهود أي رضا يقنع به و يرضي برأيه و قضائه.

(1) محمد فريد عبد الله، معجم الفروق، في المعاني، دار الموسم، د.ط، د.ت، ص: 83.

عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص: 16-20

قال الأزهرى: رجال مقانع و فُنعان إذا كانوا مُرضيين، و في الحديث: كان المقانع عن أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم، يقال فلان مقنع في العلم و غيره أي رضا¹.

2.2 اصطلاحاً:

فقد حدد مفهومه حازم القرطاجني بقوله هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله و اعتقاده² أي أنه عملية طرح الحجج و محاولة حمل المخاطب على الإذعان في قبول ما يطرحه المتكلم .

كما يعرف الإقناع « Persuader » أنه محاولة واعية للتأثير في السلوك³، معنى هذا أنّ الإقناع نشاط لسانی مشحون بأنشطة فكرية تنتج عنها آثار سلوكية تتجسد في شكل مواقف، مجاله الخطاب، يركز على المنطق و الحجة و يتطلب درجة عالية جداً من الثقافة و الدراية التقنية بالآخر.

فيما يخص الإقناع: « conviction » فيعرف "الإقناع بالشيء" هو الرضى به و يطلق على اعتراف الخصم بالشيء عند إقامة الحجة عليه و هو على العموم إذا كان نفسي لما يجده المرء من أدلة تسمح له بقدر من الرجحان و الاحتمال كافٍ لتوجيه عمله، إلا أنه دون اليقين من دقته⁴

من خلال هذا نستنتج أنّ ارتباط الحجاج بالإقناع أمر مفروغ منه، إذ أنه يعدّ الوجه الآخر من الحجاج ، فهي استعمال الحجاج في الخطاب هو إقناع المتلقي بفحوى ذلك الخطاب و جعله يذعن لما يمليه الملقى و يطلبه، فمفهوم الإقناع يقترب من مفهوم الحجاج الذي

(1) ابن منظور، لسان العرب ج 40، مادة 'قنع)، ص: 3754.

(2) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، المرجع السابق، ص: 106.

(3) Sheidel Thomas, Persuaswe speaking, Scott, for seaman and coble biew 1967. P:01.

طه عبد الله محمد السبغاوي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، المرجع السابق، ص: 15.

هو طرح الحجج و البراهين التي تجعل المتلقي يذعن بدون إكراه ولا إرغام، و عليه فإنّ أحدهما هو غاية الآخر و الآخر هو وسيلة الأول في بلوغ غايته، فالحجاج هو مطية الإقناع، و الإقناع هو هدف الحجاج.

فالإقناع مرهون بنجاعة الحجاج، أي مدى وصول الخطاب إلى ذهن المتلقي و بالتالي يكون الإقناع قاعدة للحجاج الذي يسعى إليها. و من هنا فإنّ العلاقة بين الحجاج و الإقناع تكمن في:

- 1- أيّ نص خطابي حجاجي هو نص إقناعي بالضرورة.
- 2- ليس كل نص إقناعي نصاً حجاجياً.
- 3- الحجاج و الإقناع جزآن لعملية واحدة يرتبط الإقناع بالحجاج ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملازمة في محيط أنواع نصية أخرى.

و رغم هذا التداخل بينهما إلّا أنّ هناك حدّاً يفصلهما، نبين ذلك في الجدول التالي:

الحجاج	Argumentation	الإقناع	Persuasion
1- مسار حوارى يستخدم أحكام القيمة	1- فن الإيعاذ و المناورة		
2- هدفه الإقناع على أسس عقلية	2- هدفه الإقناع بكل الوسائل حتى غير العقلية		
3- جمهور خاص لكن يقصد من خلاله جمهور كوني	3- جمهور خاص، جمهور مستهدفة.		
4- كل نص حجاجي إقناعي بالضرورة	4- كل نص إقناعي ليس حجاجياً بالضرورة		
5- ليس كل تواصل يهدف إلى الإقناع	5- كل تواصل يهدف إلى الإقناع		
6-إنّه مجال الرأي و الممكن و الإحتمال	6- تفكير شخصي تؤدي فيه سورة الذات المقنعة دوراً أساسياً. ¹		

(1) نقلا عن عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، علم الكتب الحديث داريد، الأردن، ط1، 2012 م. ص: 32.

3- الحجاج و البرهان:

يُرد اصطلاح الحجاج و البرهان في كثير من الأحيان بصفتها مرادفين تابعين حيث ينوي أحدهما الآخر، غالباً ما يستعملان بصفتها مصطلحاً واحداً.

1.3- تعريف البرهان:

هو نمط استدلاي ينفرد بمميزات خاصة كاليقين و القطعية و الدقة و التقنين، و هذا ما أثبتته "ابن منظور" في قوله: "البرهان الحجة الفاصلة - البينة يقال برهن يبرهن برهنة، إذا جاء بحجة قاطعة للخصم"¹

نفهم من هذا التعريف أنّ "ابن منظور" يصنّف البرهان كصنف من الحجاج في مميزات خاصة به، و يقول في ذلك "ابن حزم": الحجة هي الدليل إذا كان برهاناً أو إقناعاً أو شغباً²، و المصطلح الجامع الذي يشملهما هو الاستدلال، فكل حجاج استدلال، و ليس كل استدلال حجاجاً، و كل برهنة أو استتباط أو قياس تعتبر استدلالاً و العكس صحيح. و في قوله تعالى: «وَتِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»³، أي هاتوا برهائنكم، هلمّوا حجّتكم على إختصاصكم بدخول الجنة إنّ كنتم صادقين في دعوكم، حسب ما فسره الزمخشري.

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص: 271.

(2) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ص: 39.

(3) سورة البقرة، الآية 111.

و بالرغم من تداخل مصطلحي الحجاج و البرهان إلاَّ أنَّ هناك فروق بينهما،
و يمكن تلخيصها في الجدول التالي¹:

الحجاج	Argumentation	الاستدلال البرهاني	Demonstration
1- مسار حوارى Dialogue يستعمل أحكام القيمة (برهنة جدلية)		منطق صوري لا يقبل اللبس (برهنة تحليلية)	
2- هدفه الإقناع على أسس عقلية		مساره كوني يخاطب الإدراك	
3- البرهنة ليست شخصية (موجهة إلى طرف ما) وهي ليست ملزمة		برهنة لا شخصية و هي ملزمة	
4- مجاله الرأي و الممكن (العرف)		مجاله اليقينيّات	
5- الحجج فيه تكون كثيرة نسبيا		حجة واحدة يمكن أن تكون قاطعة	
6- جمهور خاص لكن يقصد به جمهور كوني		جمهور كوني	

4- الحجاج و الحوار: جاء الحوار في الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...﴾²

- لغة: أصل الحوار الرجوع عن الشيء أو إلى الشيء، حاز إلى الشيء و عنه حَوْرًا و مَحَارًا و مَحَارَةً و حَوَارًا رَجَعَ إِلَيْهِ و منه استعاذة النبي صلى الله عليه و سلم في الحديث من " الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ*" فالمحاوره إذا هي المراددة في الكلام³.

- اصطلاحاً: لا تخرج عن معناها اللّغوي، و هي المراجعة في الكلام، و منه التحوار أي التجاوب و هي ضرب من الأدب الرفيع و أسلوب من أساليبه، و قد ورد لفظ الجدل و المحاوره في موضع واحد من سورة المجادلة في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾⁴، و قريب من ذلك المناقشة و المباحثة، و هي أن يستخرج كل اثنين ما عنده من كلام.

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص:31.

(2) سورة الكهف، الآية 34.

(3) المناوي، تعاريف ص:299.

(4) سورة المجادلة الآية 1.

و قال أبو عبيدة: "المناقشة" الاستقصاء في الحساب حق لا يترك منه شيء¹، و كون الحوار و الجدل يجتمعان في كونهما كلاما بين اثنين، و هذا يربطهما أيضا بالحجاج إلا أن الجدل هو الخصومة، و الشدة و اللدد بخلاف المحاوراة التي تميل إلى الهدوء، فهي مجاوبة و تجاوب.

و الفرق بين الحجاج و الحوار و المناظرة و الجدل أن الحوار أعمها جميعا و كلّها تدخل فيه لإشراكها معه في أنّها مراجعة الكلام و مداولته بين طرفين فهي تدخل في معنى الحوار في هذه الجهة، ثم تخرج المناظرة عن دلالتها على الفكر و النظر، و الجدل و الحاجة في دلالتها على المخاصمة و المنازعة.

و للحوار أهمية كبيرة في حياتنا، و الحوار الناجح يكون بتطبيق آدابه، فالدعوة إلى الله عزّ و جلّ و نصرته دين الإسلام تستوجب حوار الداعي مع المدعو، قال الله عزّ و جلّ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾²، من أجل الوصول إلى الحق و تحقيق التفاهم، و الهدوء، و كذلك إثراء المعرفة، فقد تنقطن إلى أمور معرفية لم نكن نعرفها لولا محاولتنا و مناقشتنا التي تتبنى على الرؤية فهو وسيلة لنقل الأفكار و تبادل المعلومات و تنمية القدرة على التفكير و التواصل مع الآخرين.

5- الحجاج و المناقشة:

تعدّ المناقشة لون حوارى كذلك، و هي في أصلها اللّغوي على حدّ قول ابن منظور في لسان العرب "نقش الشوكة ينقشها نقشا و انتقشها: أخرجها من رجله و به سمي المناقش الذي ينقش به، و ناقشه الحساب مناقشة و نقشا: استقصاه، و في الحديث: "منْ

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (222/5).

*قال السندي في شرحه: '(الحوار بعد الحوار)، الكور لف العمامة، و الحوار نقضها و المراد الإستعاذة من النقصان بعد الزيادة أو من الشتات بعد الانتظام، أي من فساد الأمور بعد اصلاحها، و قيل: من الرجوع عن الجماعة بعد الكون فيهم و المقصود الرجوع من الشيء إلى الشيء من الشر.

(2) سورة النحل، الآية 125.

نوقش الحساب عدّب¹ أي من استقصي في محاسبة حوقق ... و أصل المناقشة من نفس الشوكة استخرجها من جسمه².

ففي المناقشة إظهار الحساب بين شخصين و من ذلك تبيان و إيراد الأخطاء بالحوار. يتجاوز اثنان أو أكثر حول قضية ما، يطرحون فيها أفكارا و يناقشونها فيما بينهم للوصول إلى أهم النقاط، و لتتضح لديهم الأفكار أكثر شرط أن تكون في انتظام و هدوء لتفضي و تؤدي إلى نتيجة ايجابية.

أما اصطلاحًا:

صارت المناقشة اصطلاحًا: لونا حواريا ذا طبيعة خاصة حيث تجتمع مجموعة من الناس لإدارة حوار حول مسألة متفق عليها من قبل، وهي " موقف مخطط يشترك فيه مجموعة من الأفراد تحت إشراف قيادة معينة و توجيهها لبحث مشكلة أو موضوع محدد بطريقة منظمة، و يعرف كل فرد فيها دوره بهدف الوصول إلى حل تلك المشكلة"³.

و قد تطور هذا اللون و انتشر في شتى مجالات و صور التعليم المعاصر، فكانت السبيل الأمثل لحل المشاكل الإجتماعية، و الوسيلة المثلى لنجاح العملية التعليمية و التربوية و مناقشة قضية ما تكون بالسؤال و الجواب الذي يعتبر لون حوارى أمر الله عزّ و جلّ في قوله: ﴿ فاسألوا أهل العلم إن كنتم لا تعلمون ﴾⁴ لكونه من أهم وسائل التعليم و التعلم. و كما دخل في محاوره الأنبياء فنجد في سورة الكهف حوار وأسئلة موسى عليه السلام ، و قال تعالى إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدين عذرا"⁵، فالسؤال هو السبيل للمعرفة و اكتساب خبرة ممن هم أعلم منك، كسؤال بين حكيم، عالم، خبير، كبير في السن، فنحن نعيش نتعلم و ليس لنموت.

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق '(6536) و رواه مسلم '(7225) و الآية من سورة الإنشاق آ:8

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة "نقش".

(3) عباس محمد أمان، تنمية مهارة المناقشة لدى تلاميذ المرحلة الثانوية بالبحرين. 17 رسالة ماجستير غير منشورة بكلية التربية، جامعة عين شمس، 1987.

(4) سورة النبياء، الآية 7.

(5) سورة الكهف، الآية 76.

6- الحجاج و المناظرة:

قال الراغب في المفردات "تقليب البصر لإدراك الشيء و رؤيته و قد يراد به التأمل و الفحص، و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، و هو الرؤية..¹"، فالنظر يقع في المحسوسات و المعاني، فما كان محسوسا فالنظر إليه بالبصر، و ما كان معنا، فالنظر إليه بالبصيرة و العقل. و من النظر بالبصر قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾² و من النظر بالبصيرة و هو التفكير و التدبر قوله عزّ و جلّ: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾³.

2.6- اصطلاحاً: قيل هي تردد الكلام بين شخصين يقصد منهما قوله و إبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق⁴، و لأنّ المناظرة تهدف إلى إظهار الحق و إقامة البرهان على صحّته، أمر الله سبحانه و تعالى جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن، و من هذا المفهوم للمناظرة كان الجدال بالتي هي أحسن الوارد ذكره في القرآن عن مناع القطان مناظرة، لأنها الطريقة التي يشمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين و إلزام المعاندين⁵، لذلك كان الفرق بين الجدال و المناظرة، فالمناظرة يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت فيه أنظار المتناقشين، أما الجدل فيكون الغرض منه إلزام الخصم، و التغلب عليه في مقام الاستدلال، لأنّ المناظرة شكل من أشكال الحوارية داخل السياقات المختلفة فهي تهدف إلى إحداث نوع من الإشتراك مع الطرف الآخر في إنشاء الخطاب و في توسيع آفاقه بطريقة الحجاج، و لذلك تعتبر المناظرة آلية من الآليات التي تؤدي في النهاية إلى الحجاج. و من أهمية المناظرة صقل مواهب المتعلّم و تدريبه على إتقان فنون القول و الجدل الزامي إلى بلورة الرأي في إطار احترام الرأي

(1) الراغب في المفردات، ص: 518.

(2) سورة القيامة، الآية 22- 23.

(3) سورة الأعراف، الآية 185.

(4) ينظر مناهج الجدل في القرآن، دار زاهر الأمعي، ص: 24.

(5) يراجع مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط2، لبنان، 1998. ص: 298.

الآخر و لو كان مخالفا من أجل بناء صدح تواصلتي خطابي صالح قابل للمناقشة و الحوار في ظروف هادئة تكون فيه الغلبة لصاحب الحجّة القوية المؤهلة للإقناع و الإذعان.

7-الحجاج و المراء

استعمل و ورد لفظ المراء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾¹.

1.7- لغة: الجدل و التماري و المماراة: المجادلة على مذهب الشك و الريبة و يقال للمناظرة ممارسة²، و ماريته اماريه ممارسة و مراء جادلته³.

2.7- اصطلاحا: فهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه و إقحامه، و الباعث على دفع الترفع، و قال الجرجاني: "المراء: طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير".⁴

فمما لا شك فيه أنّ المراء يدخل في الحقل الدلالي للحجاج و هذا ما لاحظناه في التعاريف و ذلك في محاولة إقناع الغير و إفهامه بأن رأيه الخاص خاطئ، ولكن تبقى الشمولية للحجاج. كما يكمن الاختلاف في أن المراء يتعدى الإقناع و الدحض بالحجّة القوية إلى أكثر من ذلك أي بالإقحام و تحقير الغير، و هذا ما نهى عنه القرآن الكريم، فالجدال و المراء قد يؤديان إلى تكفير الآخرين أو تفسيقهم، و التشفي فيهم و إطلاق اللسان فيما لا يستحب من ألفاظ، و إنكار الحق، و قد يؤدي إلى الكذب و يورث الضعف و الشقاق و العداوة بين أفراد المجتمع على حدّ قول أحد الحكماء: " لا تمار حكيما ولا سفيها، فإن الحكيم يغلبك و السفيه يؤذيك"⁵

(1) الحجر، الآية 63.

(2) أبن منظور المرجع السابق. ص: 278.

(3) المصباح المنير للقيومي '(569/2)

(4) التعريفات للجرجاني، ص: 209.

(5) ابن المفلق، الآداب الشرعية. '(18/1).

و دليل ذم الجدل و المراء في القرآن و السنة:

قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾¹.

و قوله أيضا عزّ و على: ﴿ لَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾²، أي أن يماري في آيات الله و يخاصم بهوى نفسه.

و عن ابن مسعود في قوله: ولا جدال في الحج قال: ' (أن تماري صاحبك حتى تغضبه)³، فالمجادلة في الدين تكون حسب الكلام، و لطف و لين و دعوة إلى الحق و رد الباطل و دفع الظلم و بيان الصواب و تهجين المذموم من الأفعال و ذلك يتم بتقديم الأهم من الحجج .

8-الحجاج و النزاع:

جاء لفظ المنازعة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾⁴، و قوله أيضا جلّ جلاله: ﴿ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾⁵.

ف نجد من بين ألفاظ الحجاج الذي يدل على المخاصمة و الشقاق لفظ النزاع.

1.8- لغة: عرفه ابن منظور قائلا: نزع الشيء نزعا و النزاعة و المنازعة و الخصومة و المنازعة في الخصومة، مجاذبة الحجج ، فيها يتنازع الخصمان، و قد نازعه منازعة و نزعاً جاذبه في الخصومة ... و النزاع التخاصم⁶، و هذا نفسه ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني في قوله: " التنازع و المنازعة ، المجاذبة و يعبر بهما عن المخاصمة و المجادلة"⁷. و المجاذبة تعني مجاذبة الحجج و إقحامها على الآخر.

2.8- اصطلاحا: التنازع ينشأ من اختلاف الآراء، و هو أمر مرتبط بالفطرة، لأنّ التنازع يفضي إلى التفرق، و هو يهون أمر الأمة، و يسبب الفشل و ذهاب القوة و الوحدة

(1) سورة البقرة، الآية 197.

(4) سورة آل عمران، الآية 152.

(2) غافر، الآية 4

(5) سورة الأنفال، الآية 46.

(3) رواه الطبري في تفسيره (141/4)

(6) لسان العرب لابن منظور، مادة (نزع)

و ضعف شوكة المسلمين كما جاء في الآية ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ و التنازع و الاختلاف بين المسلمين نهى عنه الإسلام و دعاهم إلى التفاهم و التشاور و مراجعة بعضهم بعضاً حتى يتفقوا على رأي واحد.

9- الحجاج و الخصام:

لاشك أن لفظ الخصام يقترب كثيراً من لفظ الجدل. ورد في لسان العرب: "خصم الخصومة الجدل خاصمه خصاماً و مخاصمةً، يخصمه خصماً عليه بالحجة و الخصومة، الاسم من التخاصم و الاختصام... و رجلٌ خصيمٌ جدلٌ"¹، فابن منظور في هذا السياق يحصر الخصومة في الغلبة بالحجة، و أنه مرادف للجدل، و يعرفه الراغب الأصفهاني قائلاً: "الخصم مصدر خصمته نازعته خصماً يقال خصمته مخاصمةً و خصاماً.... و أصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي جانبه"²، فالغالب على معنى الخصام أنه منموم فهي تعني الجدل و النزاع الذي عادة ما يكون بين الطرفين إذ أن كل منهما يحاول إفحام الآخر "خصمه" و إقحامه بكل ما أمكن من الحجج و البراهين.

و جاء لفظ الخصام في القرآن الكريم بآيات كثيرة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. و معنى قوله تعالى و هو ألد الخصام "أي شديد الجدل و العداوة للمسلمين" إضافة الألد بمعنى كقولهم تثبت العذر أو حصل الخصام، ألد على المبالغة و قيل الخصام: جمع خصم كصعب و صعب بمعنى و هو أشد الخصومة خصومة".

فقد نهى القرآن الكريم على كل ما من شأنه إيراد الخصام و النزاع بين المسلمين، فاحترام الرأي الآخر من آداب المسلم و من لم يقتنع بالدعوة الحسنة الحجة البالغة و القول الطيب و الكلام اللين و الأسلوب اللبق، فهو أولى بأمره و حرّ بإختياره و تفكيره.

(1) ابن منظور ، المرجع السابق، مادة/خصم.

(2) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق.

و خلاصة القول عن دوران الحجاج في مجاله المفهومية في دائرة هذه المصطلحات المتداخلة لا سيما لحضورها داخل الخطاب القرآني الذي كان فيه الحجاج عنصراً مهماً في عملية الإقناع، و في إدراك الحق و قبوله، بإعمال العقل، و تبين أنَّ الإنسان يحصل على القناعة الذاتية بالإرتكاز على الحجّة و البرهان في إطار الحوار الهادئ في قضايا العقيدة و غيرها.

و إذا كانت الحجّة هي القضية أو النسق القضايا التي تقدم لصحة قضية أخرى أي أساس البرهان، فقد أكد القرآن العظيم عليها في أكثر من موضع، و بمعانٍ مختلفة أرقاها الحجّة البالغة التي أقامها على العباد في قضية الإيمان و الكفر في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة الأنعام آ (149)، و دعي المؤمنين بضرورة التصدي بالحجّة و تحصيل الإقناع بها المرتكز على البرهان و الدليل، فيكون بها الظفر عند الخصومة و النزاع، مثلما يكون بها التواصل عند التحوار بهدف الوصول إلى الحق، إنَّ الحوار و الجدل ذاته يصبح حقاً طبيعياً أمام الله تعالى الذي يعلم كل شيء كما يقول عزّ و جلّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُؤْفِي كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (111). سورة النحل .

و قد أصبحت الحجّة عصب الحياة المعاصرة، فاكتمت السياسة و القضاء و الدعاية و الإشهار و السيكلوجيا و الإيديولوجيا... إذا لا غنى عنها ولا مفرّ منها في كل طرائق الإقناع التي يسلكها أهل الدعاية في صحفهم، و الأساتذة في محاضراتهم و السياسيون في خطاباتهم و الفلاسفة في معالجتهم و العوام في تواصلهم... فإنها حاضرة حضوراً قوياً في كل مجالات التواصل، ولا تواصل من غير حجاج، و بفعل النضج الذي عرفته المجالات المعرفية كالمنطق، اللسانيات و علم النفس جعلت الدراسات الحجاجية تحظى بأهمية كبرى و قد أثبت الحجاج فعاليته الفائقة و قدرته على فك الكثير من معاني الخطاب، و كان التطور الذي عرفته الأبحاث الحجاجية نابع من استلهاهم

الموروث البلاغي و الفلسفي عند الغربيين من خلال إحياء التراث الفلسفي اليوناني، وعند العرب التراث البلاغي و الكلامي العربي، فالحجاج يستمد مكانته العلمية و المعرفية من خلال موضعه في داخل الخطاب و من خلال طرائق ما يتحمله القول لذلك أولت علوم اللغة الحديثة التحليل الحجاجي مكانة فائقة.

الفصل الثاني:

الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم.

المبحث الأول:

مفهوم الخطاب.

المبحث الثاني:

تعريف النصّ الحجاجي.

المبحث الثالث:

تصنيف الخطاب القرآني.

تمهيد

إنّ القرآن الكريم هو أول كتاب علّم العرب كيف يستنبطون الأحكام العقلية المبنية على مقدمات صحيحة، فدعاهم إلى استخدام عقولهم للتواصل إلى حقائق الظواهر، و اعتبر استخدام العقل مبدأً أساسياً في الإيمان الصحيح.

و قبل المضي في دراسة الآليات الحجاجية في كتاب الله المبين، كان لابد من أن نركز على المعطيات الأساسية التي يتأسس عليها الخطاب القرآني، و التي جعلت منه خطاباً حجاجياً بالدرجة الأولى، و من ذلك تميز آيات القرآن الكريم بأساليب حجاجية تعتمد على أعمال العقل و التفكير و البرهان و الحجّة بحجّة أبلغ منها، فقد تمكن القرآن الكريم من التأثير على النفوس و استمالة العقول، نظراً لكونيته، فالخطاب القرآني موجه إلى مخاطب كوني أي أنّه لا يتوسل متلقياً معيناً في زمان و مكان مخصوصين و إنّما هو موجه إلى البشرية جمعاء، لقوله عزّ و علا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ سورة العراف، آ: 157.

و تتنوع و تعدد الأساليب و النماذج الحجاجية في القرآن الكريم ، يبين كونه صريحاً حجاجياً من الناحية البنائية و الأسلوبية، و البلاغية. لذلك تتعدد المقاربات التي تناولت آياته بالدراسة و التحليل و الكشف عن المضمون الحجاجي لتلك الأنساق الداخلية و الاستدلالية، و الحجج العقلية، و لقد زاد اهتمام الدارسين المحدثين بالحجاج في سياق التداولية للغة لا سيما في جانبها المتعلق بالتأثير و الإقناع، لذلك أخذت دراسات الحجاج تهتم باستراتيجيات الخطاب الهادف إلى الأسر والاستمالة، فمخاطبة العقول و القلوب فنّ لا يجيده إلا من يمتلك أدواته، و رغبة في الوصول إلى تحقيق الهدف من الإقناع. فإنّ مما تحسن العناية الشديدة به نشر ثقافة الإقناع و فنون الخطاب و قوانينه و آداب الحوار و فن الاستماع

و تقمص شخصية الآخر في محاولة لفهم دوافعه و موقفه لذلك سنتعرف في هذا المبحث على مفهوم الخطاب في اللغة و الإصطلاح، الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم على وجه التحديد، و خصائص الخطاب القرآني ، و كذا ما أمكن لنا من سرد قوانين الخطاب بإيجاز، و كذا مرحلة بناء النص الحجاجي كما سنحاول تبيان الإستراتيجية المستخدمة للإقناع في القرآن الكريم بين العقل و العاطفة.

مع العلم أننا نعتمد في هذا المبحث إلى إيراد مصطلح "الخطاب" و " النص " بمعنى واحد ما دمنا نتوخى منهج تحليل الخطاب الذي يجمعهما معا و يوردهما بمعنى نفسه، شأنه شأن اللسانيات النصية «linguistique textuelle» في دراسة النصوص.

المبحث الأول: مفهوم الخطاب.

1- تعريف الخطاب:

1.1- **لغة:** لم يصرح "ابن منظور" في تعريفه لمصطلح الخطاب عن دلالة الكلام و معايير و هو ما ذهب إليه كثير من علماء اللغة قديما و حديثا، يقول "ابن منظور:"
الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا، و هما يتخاطبان و الخطبة مصدر الخطيب، و خطب الخاطب على المنبر، و اختطب يخطب، خطابه، و اسم الكلام الخطبة [.....] و ذهب ابو اسحاق إلى أنّ الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجع، و في التهذيب: الخطبة مثل الرسالة التي لها أول و آخر.¹

2.1- اصطلاحا:

فالخطاب عند الغربيين: " كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا غير أنّ الاستعمال تجاوز ذلك إلى مفهوم أكثر تحديدا يتصل بما لاحظته "غرايس" من أنّ الكلام دلالات غير ملفوظة ، يدركها المتحدث و السامع دون علامة معلنة، أو واضحة ... و قد اتجه البحث فيما يعرف بتحليل الخطاب إلى استنباط القواعد التي تحكم مثل هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية"²، فقد ربط الخطاب بالظروف الخارجية (الاجتماعية، السياسية... إلخ).

و يقول "مايكل ستورت" حيث يذهب إلى أبعد من هذا بقوله: " الخطاب اتصالي لغوي، يعتبر صفقة بين المتكلم و المستمع، نشاطا متبادلا بينهما و متوقف صيغة على غرضه الاجتماعي"³، فالخطاب تجربة ديناميكية تساهم فيها عدّة أطراف عن طريق التفاعل، من أجل تحديد الأدوار و من ذلك: مؤلف، خطاب، قارئ (مستمع)، هذا الأخير الذي يسعى إلى

(1) ابن منظور المرجع السابق، ص: 361.

(2) ميجان الرويلي، وسعد البازعي، المركز الثقافي، ط2، 2000م، ص: 89.

(3) سارة ملير، الخطاب، الترجمة: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب و اللسانيات، جامعة متورني قسنطينة، 2004، ص: 3.

تحليل الخطاب من أجل الوصول إلى أقصى حد ممكن من المقروئية و الاستيعاب و وقوفا على الرؤى وبنى التي ساهمت في هذه النتائج الفكرية/التواصلية المتنوعة: (قضايا دينية، اجتماعية، مذاهب، معتقدات، مبادئ، تراث إلخ). فنجد مصطلح خطاب من حيث معناه العام المتداول في تحليل الخطابات، يصل إلى نوع من التناول للغة أكثر مما يصل على حقل بحثي محدد، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية إعتباطية بل نشاطاً لأفراد مندرجين في سياقات معينة و كما أنه يفترض تفصل اللغة عن معايير غير لغوية، فإن الخطاب يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف.

و يذهب "دومينيك مانغو D.MAINGUNEAU" في كتابه "الاتجاهات الجديدة في تحليل الخطاب عن المجالات اللسانية أحياناً و ينتهي إلى تعريفه كما يلي:

1- الخطاب مردف للكلام عند "دي سوسير"، وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية.

2- هو الوحدة اللسانية التي تتعدد الجملة فيها و تصبح رسالة كلية أو ملفوظاً.

3- الخطاب ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل، تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية و بشكل يجعلنا نلحظ في مجال لساني محض¹.

و في المقابل هذا التعريف الذي يحصر الخطاب كموضوع لساني صرف في الجملة ، يأتي تعريف "بن فنيست" "E.BEN VENISTE" الذي يحدد مفهوم الخطاب من حيث هو كلام/ و تلفظ يفترض وجود متكلم و مخاطب و أنّ لأول نية التأثير على الثاني بشكل من الأشكال²، أي أن الخطاب دائماً عبارة عن عملية تفاعلية و تواصلية و تداولية تحضر فيها أطراف ثلاثة: المرسل، المرسل إليه، و الرسالة. إذ يحمل المرسل مجموعة من النوايا و الرغبات و المقصودات المباشرة و الغير مباشرة لإيصالها إلى السامع المعترض في قالب لغوي و تعابير يختارها، و من ثم فإن الكلام تبادل الإرساليات و كل قول هو حمل خاصة

(1) نور الدين الشد، الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج2، دار هومة، الجزائر، د.ط، 1997 م، ص:27.

(2) Emile BEN VENISTE, Problèmes de Linguistique Générales, 2.Gallimard, Paris.1966, P :245

إذا كانت الإرساليات عبارة عن جمل إستثنائية و حوارية استلزامية أو أفعال كلامية، و بالتالي هناك من ربط النص بالخطاب و جعل لهما تعريفاً موحداً تحت لواء تدريسية النصوص، مفاده أن " النص خطاب ذو معنى مثبت بالكتابة أي مثبت بملفوظات مترابطة و متراسة تتضمن رموزاً دلالية على القارئ أن يتعرف عليها و يدرك معناها أو بتعبير آخر إنّ النص مجموعة من الملفوظات تشكل بصفة عامّة خطاباً مسترسلاً، كما تشكل بنية قابلة لفهم للفهم و التحليل"¹.

3- قوانين الخطاب: أو يسميها غرايس بأحكام الحديث (*Maximes conversationnelle*)، تؤدي قوانين الخطاب دوراً فعالاً و أساسياً في دلالة الأقوال المستعملة في الحجاج، و بخاصة قوانين الإفادة و الشمولية و الإخبارية، و ما دام الأمر متعلق في التأثير في المستمع، فإنّ المحاجج يسعى قدر الإمكان على أن يلتزم في خطابه بكلّ ما يعرف حول موضوع الحجاج، و ما يوجهه من حجج و أدلة إلى المستمع في حدود اهتماماته و قدرته على الفهم و الإستنتاج و الفائدة التي يربوها من الخطاب، فنجاح الخطاب مرتبط بالقوانين الحوارية بين المتكلمين الذين يدخلون في حوار بناء. كما تعدّ من الأسس التي تنظم العلاقات الحوارية و من هذه القوانين نذكر ما يلي:

1.2- قانون مبدأ التعاون « Coopération » : و هو رغبة الطرفين في تنمية العملية الحجاجية و نجاحها حيث يتمّ التعبير بطريقة تجعل المتحاورين كل يفهم الآخر، فيستخدم عبارات مناسبة لمقام التخاطب، تجعل المخاطب يلتزم بموضوع الحوار فاستمرارية الخطاب يقتضي من المحجاج شدّ إنتباه المستمع إلى كلّ ما يطرحه. سواء على مستوى المقدمات أو التبريرات أو الأدلة و الحجج، ليصل إلى النتيجة المرجوة تصريحاً أو تلميحاً من خلال التعاون القائم بينهما أثناء الحوار بعيداً عن لغة الفرض و الإجبار و الإلزامية تكون صمت المحادثة المفيدة.

(1) نخبة من الأساتذة، تدريسية النصوص، ج2، الدليل التربوي، الرباط، الغرب، د ط'، 1993م، ص:8.

2.3- قانون الملاءمة: المقصود بها التحدث بما يلائم المتخاطبين ، و ألا تستخدم عبارات خارج نطاق الموضوع من شأنها أن تحرف فهم المخاطب أو تجعله يخرج عن بؤرته الأساسية ليحشر فيه أفكارًا أخرى خارجه.

3.3- قانون الإخبار و الإستفاء: و هو أن يكون الكلام الذي يدور بين المتحاورين ذا دلالة تحتاج إلى بلّورة بهدف الوصول إلى نتيجة و يفترض في الحوار أن ينقل خبرًا ما، فإذا حاد عن ذلك صار هراءً، و الحرص على دقة المعلومة.

4.3- قانون الجدية: و هو المبدأ المفروض توفره في كلا المتخاطبين ضمانًا لنجاح الحوار أي يحب أن يلتزم كلاهما الجدية في تناول الموضوع من سائر جوانبه، فإذا تسرب الشك من قبل أحدهما إلى جدية الحوار إنهار و فشل.

5.3- قانون الشمولية: و المقصود به الإحاطة الشاملة و الكاملة للموضوع ضمانًا لنجاح الحواريين المتخاطبين ولا يعدّ الخطاب ناجحًا إلا إذا كان أحاط بكلّ أطراف الموضوع و إعطاء المخاطب كل ما بوسعنا و بحوزتنا من معلومات و يكون خرق هذا القانون إمّا بالضمنية أو بإخفاء قدرٍ من المعلومات.

6.3- قانون الوجاهة و الفصاحة (الجهة): يكون بإحترام و مراعاة المقام (الرّقابة)، و تكييف السياق بحسب فكر و رعاية المتلقي و أن يكون الخطاب وافيًا و مختصرًا في تقديم المعلومة بشكل مباشر.

7.3- قانون الكم: و ذلك بتقديم الكم الكافي من المعلومات حتى يكون هناك تفاعل بين المتكلم و المستمع مع وضوح المعلومة و صدق الخبر و موضوعيته.

8.3- قانون الإفادة: بمعنى أن الكلام يشترط فيه أن يكون مفيدًا، فالمشروعية الخطابية لقول ما تقاس أساسًا بمدى إفادته و ليس بقدرته على الإخبار.

9.3- قانون الصدق: صحّة المعلومات و صدق الخبر شرط أساسي في عملية الخطاب فمن خصائص الكلام البشري قدرة الإنسان على التلاعب به بحيث يستعمل (الغموض، المغالطة، الكذب).

10.3- قانون المشاركة: هذا المبدأ عند " غرايس " يعتبر العمود الفقري في النشاط الكلامي، إذ يضمن عدم انقطاع التواصل، و هذا يركز على الاعتراف المتبادل بين الطرفين و التناوب في الكلام، فتشكيل الخطاب و تواصله كنشاط كلامي، و نجاحه يقتضي بناءه على أساس هذه القوانين و خرقها يؤدي إلى فشل القصد من الخطاب ، لذلك تعد هذه القوانين التي صاغها "بول غرابيين" أساسية في كل حوار بناء بين المتحاورين في المجتمع. و قد وقع التركيز على هذا الكلام لأنّ أيّ كلام هو حقيقة ذو بعد حوارى بالأساس.

يعد الخطاب الحجاجي قرين التدليل و الاستدلال و الإقناع، و هي معطيات وليدة العقل يشارك فيه عنصران على الأقل، أي الباث و المتلقي ، و هما طرق الحجاج، كما تتأرجح طريقته المعتمدة بين الحوار الإقناعي المباشر و بين استمالة الطرف الآخر كتابيا عن طريق حشد الشواهد و البراهين و عليه يمكن القول أن الخطاب الحجاجي قد يكون شفويا أو كتابيا، و فيما يخص وجه الخطاب فيكون موضوعي بحيث يسعى كل طرف في الحجاج إلى إثبات و تنفيذ الموضوع محلّ الجدل للتأثير و تغيير سلوك الآخر و فكره إزاء معتقد أو قضية أو موقف ما.

كلّ حسب موقفه في الخطاب و استدراج الخصم اتبني موقفه الخاص. و تقبل رأيه، و لهذا يبرر دور الغلب المنطقي، كما هو متوقع في الخطاب الحجاجي الذي يقوم أساسا على آليات الاستدلال. الكلام الحجاجي هو في الحقيقة إحدى الوظائف التي تؤديها اللغة الطبيعية التي هي نقيض اللغة العلمية المصنوعة و الاصلاحية غير مفيدة الاستعمال العلمي أو التقني، لأنّ هذا الأخير تنتفي معه ضرورة الحجاج، لا طالما أنّ الأمور تكون محسوسة بالقبول أو الرّفص¹، و الرابط المشترك بين الخطاب و الحجاج حسب "أبو بكر العزاوي" ، نستنتج من خلال تعريفه للخطاب "أنّه بنية منطقية طبيعية تتحكم فيها مجموعة من العلاقات المنطقية (علاقات الشرط و السببية و الاستلزام و الاستنتاج و التعارض) كما

(1) ينظر محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون و أرسطو و شايم بيرلمان، مجلة عالم الفك، المجلّد 40، العدد 2 أكتوبر-ديسمبر 2011 م، ص: 13-14.

يرى أنه ليس بنية خطابية فقط و لكنّه بنية خارجية أيضاً، إذ يمكن الحديث من " وظيفة حجاجية عامّة للخطاب برمّته، من خلال ربطه بالمتكلم و المخاطب و ملابسات وظروف سياق التخاطب و الاجتماعي العام"¹ . و يقول في موضع آخر عن الحجاج في المستوى الخارجي إنّه يوجد في " المقصدية و مقتضيات الحال و الشروط التواصلية و التفاعلية و المقام التخاطبي العام"² فينطلق الباحث هنا من بناء تصوره من اللّسانيات الحجاجية أو من نظرية الحجاج في اللّغة، فالحجاج هنا ظاهرة لغوية نجدها في كل قول و في كل خطاب سواء كان الخطاب فلسفياً أم دينياً لأم اقتصادياً أو سياسياً...³.

4- أنواع الخطاب الحجاجي:

إن تعريف الحجاج يعرف تبايناً كبيراً انتشعب مجالاته و تعدد استعمالاته و اختلاف مرجعياته بحيث يستمد مرجعية خطابية محدّدة، و من خصوصية الحقل التواصلية الذي يتناسب و استراتيجيته، و قد حصر بعض البحوث أنواع الحجاج في ثلاثة أنواع، و هي: الخطاب الحجاجي البلاغي، الخطاب الحجاج الفلسفي، و الخطاب الحجاجي التداولي. إذ تختلف هذه الخطابات باختلاف أصولها و امتداداتها المعرفية و المنهجية، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من تداخلها. سنحاول التعرف على هذه الأنواع باختصار د، سنتعمق فيها أكثر فب المبحث الثالث " الآليات الحجاجية في القرآن الكريم" إذ سنشرحها بشكل موسع.

4.1- الحجاج البلاغي: و تعدّ البلاغة آلية من آليات الحجاج و ذلك لإعتمادها الاستمالة و التأثير عن طريق الحجج بالصور البيانية، و الأساليب الجمالية، أي اقناع المتلقي عن طريق اشباع فكره و مشاعره معاً حتى يتقبل القضية أو الفعل الذي يسعى المُلقّي إلى تحقيقه أي الهدف من وراء الخطاب و موضوعه، فيقول أرسطو: " و يحصل الاقناع حين يهياً المستمعون و يستميلهم القوا الخطابية، حتى يشعروا بانفعال ما، لأننا لا نصدر الأحكام على نحو واحد حسبما نحس باللذّة أو الألم ، و الحب و الكراهية....و الخطاب هو الذي ينتج

(1) أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010م، ص:19.

(2) المرجع نفسه، ص: 60.

(3) المرجع نفسه، ص: 37.

الاقناع حينما نستخرج الصحيح و الراجح من كل موضوع يحتمل أن يقع فيه الاقناع¹ إذ يعتبر أرسطو البلاغة فناً خطابياً بامتياز، فيستعمل أدوات حجاجية و استدلالية و منطقية التأثير في الآخر و اقتناعه ذهنياً و وجدانياً.

4.2- الحجاج المنطقي: الحجاج بعد جوهرى في الفلسفة، و هو آلية إجرائية من إجرائيتها و تقاس صلاحية الحجاج الفلسفي بمعايير خارجية، منها القوة، و الضعف، الكفاءة و عدمها، النجاح أو الفشل في الاقناع، و غايته التأثير و التقبل، فمن المعروف أن الحجاج له وظيفتان بارزتان: التأثير و الاقناع، فالتأثير مرتبط بالعاطفة و الوجدان و أما الاقناع فهو مرتبط بالعقل و المنطق، و يرى "حبيب أعراب" أن هذا الخطاب هو خطاب الدليل و البرهان لا خطاب الحجة و البنية تحقيقاً لغاية مناصري العقلانية من الفلاسفة أو إرساء للحقيقة. و يؤكد على أن الممارسة الحجاجية و الاستدلالية في ميدان الفلسفة ليست مقصودة لذاتها، و من ثمة فهي ليست معزولة كلياً عن الإجراءات و البعاد الأخرى في هذا النمط من القول".²

3.2- الحجج التداولي: و يبعث لفظ التداولية على استحضار نظرية أفعال الكلام كون الأفعال الكلامية فرضاً رئيسياً عرضاً رئيسياً للتداولي³. و قبل ان نخوض في الحجاج التداولي لا بد و أن نعرض نقاط توضيحية اهذه النظرية.

- **نظرية أفعال الكلام:** ترتبط نظرية أفعال الكلامية بقضيتين اثنتين "أوستن" و "سريل" و تأتي أهمية هذه النظرية في كونها غيرت النظرية التقليدية للكلام التي كانت تتجاوز بشدة الاستعمال المعرفي و الوصفي له، ونظرت إلى اللغة في بعجها الدينامي، أي باعتبارها قوة فاعلة في الواقع و مؤثرة فيه، حيث أنها ألغت الحدود القائمة بين الكلام و الفعل، فأى معلومة تقدم لشخص ما هي إلا إشارة بواسطة شيء ما و تسعى لبلوغ هدف ما أو بعبارة

(1) الدكتور جميل حمداوي، نظريات الحجاج، شبكة الألوكة ص: 22-23 .

(2) حبيب أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي، ص: 115-116.

(3) ينظر محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاجو فنونه في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، العدد 2، يناير- مارس 2000 م، ص: 61.

أخرى هي حلقة ضمن سلسلة التبادل الكلامي الدائر في ذلك الواقع الإنساني أو الحياة الإعتيادية و قد صنف كل من "أستين وسيرل" الأفعال الكلامية إلى:

أولاً: تصنيف "أوستين": قسمها من حيث معناها إلى مجموعات وظيفية لأنها كثيرة و يستحيل إحصائها العددي:

✓ **الأفعال الدالة على الحكم:** أفعال تثبت بعض القضايا بناء على سلطة معترف بها رسمياً أو سلطة أخلاقية لا تشترط أن تكون دائماً إلزامية، فهي تقييمية، حكم، تقدير، تحليل إصدار مرسوم، و قد شبه أوستين فعل الحكم بالفعل القانوني.

✓ **أفعال الممارسة:** تتجلى في ممارسة الحق، لها الحق في فرض واقع جديد، التعيين، الاستشارة، الانتخاب، الترشيح، و هو تحكيم أكثر منه تقديراً و قراراً أكثر منه حكماً.

✓ **أفعال الوعد:** و هي الأفعال الكلامية التي تؤسس لدى المتكلم إلزامية القيام بعمل ما معترف به من قبل المخاطب على الاعتراف بهذه الإلزامية، كالقسم، الرهان، التعهد، النذر، الضمان

✓ **أفعال السلوك:** مرتبطة بالسلوك الاجتماعي للمتكلم، و هي التي تحمل المتكلم على اتخاذ¹ الموقف المنصوص على فهم القول إزاء المخاطب مثل : الإعتذار، التهئة، الشكر، التعزية،

ثانياً: تصنيف "سيرل": و يصنف "سيرل" خلافاً لأستاذة الأفعال الكلامية إلى:

✓ **أفعال تمثيلية:** و هي الأفعال التي تلزم المتكلم بصدق العبر عنها و من أمثلها أفعال التقرير و الاستنتاج.

✓ **أفعال توجيهية:** تمثل محاولات المتكلم لتوجيه المستمع للقيام بعمل ما من أمثلها أفعال الطلب و السؤال.

✓ **الأفعال التعبيرية:** و هي الأفعال التي تغبر عن حالة نفسية المتكلم و من أمثلها: الشكر، الاعتذار، الترحيب و التهئة

✓ **أفعال إلزامية:** تلزم المتكلم بالنهوض بسلسلة من الأفعال المستقبلية و من أمثلها: أفعال العرض، الوعد و الوعيد.

(1) محمد بلخير، الخطاب تمثيل للعالم - مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية، ص: 135.

✓ أفعال إعلانية: و هي الفعال التي تحدث تغيرات فورية في نمط الأحداث العرفية التي غالبا ما تعتمد على طقوس اجتماعية و لغوية و تتسم بالإطالة و من ذلك: أفعال الحرمان، الطرد، الإقالة من العمل.

و رصد أفعال الكلام بتنوعها و اختلاف الأبعاد التداولية المتعددة المستويات التي يتيح تحقيقها إمكانية معرفة توجه الخطاب الحجاجي التداولي، و الإجابة عن الإشكاليات الجوهرية و الأسئلة المهمة التي تحيط بعملية التخاطب ' (الشفهي أو الكتابي)، كما تعد الحوارية من أهم مستويات تجلي البعد التداولي للخطاب الحجاجي، و هي العلاقة التخاطبية بين المخاطب و التي تتغير و تتنوع فيها الأداءات في ظاهرتين:

أ- التشخيص: و يتجسد في خاصية تلفظيه تتميز بحدّة العلاقة التخاطبية مع الشريك

ب- المقام: و هو مفهوم تجريدي يدل على الموقف التواصل، و تلتقي فيه جميع العناصر الحجاجية من قدرات برهانية، و حقائق فعلية و قرائن بلاغية، و المقام شرط تداولي بلاغي لأنّه يعني بضرورة موافقته أفعال القول لمقتضي الحال و الموقف الخاص به، و هذا ما يذهب إليه الجاحظ حينما يقول: "مدار الأمر و الغاية التي يجري القائل و السامع و إنّما هو الفهم و الإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"¹، فيرتبط الأمر للغة، و هي التواصل و كشف الكامن في الصدر.

5- أنواع الحجج: الحجة:

الحجة هي الدليل و البرهان، و الحجج هي الأفكار و الآراء و السندات المختلفة التي يتوسلها المخاطب أو الكاتب لكي يقنع الآخرين ' (الطرف الآخر المعارض) بوجهة نظره في موضوع ما، أو يستعملها لدحض و جهة النظر التي يخالفها، و من شروط نجاح عملية الاقناع و الدحض، حسن انتقاء الحجج حسب ما يلائم الأطروحة و حسب الوظيفة التي ينهض بها الحجاج و حسب تلائمها مع المقام ' (حالة المستقبل) بمعنى العلاقة بين

(1) الجاحظ، البيان و التبيين، المرجع السابق، ص: 56.

المستقبل و المخاطب، و كذلك انتقاء الصيغ و الأساليب التعبيرية التي تسهم في تقوية الحجة و السعي إلى احكام الترابط بين و حداث النص الحجائي، و نذكر من أنواع الحجج ما يلي:

• **الحجة المنطقية:** و هي الحجة التي تبنى على أساس الربط بين السبب و النتيجة أو على أساس القياس، فيتم فيها الربط بين المقدمات و النتائج، و تقوم أساساً على العقل و المنطق في الإقناع.

• **حجة الشاهد القولي:** و هي الحجج التي يكون عادة منتقاة من نصوص معترف بمدى أهميتها، و فعاليتها في التأثير و الإثبات، بل أن قوة النص في هذه الحجة هي التي تحدد قوة الحجة، و من أمثلة النصوص في هذه الحجة : النص القرآني، النموذج الأمثل للإقناع، و السنة النبوية الشريفة، أقوال الصحابة و التابعين، أقوال العلماء و الحكماء و العقلاء. و قد يطلق على هذه الحجة أيضا مصطلح حجة السلطة إذا كانت تمثل سلطة اجماع الفقهاء و الأئمة و العلماء .

• **الحجة الواقعية:** و هي الحجة التي تكون استعراضا لمجموعة من العلاقات، أو الأعمال التي تميز واقعا اجتماعيا أو حضاريا أو دينيا أو سياسيا ما، أي تتحقق في أرض الواقع تحققا فعليا حقيقيا، و قد يعتمد المحاج في إيراد هذه الحجج على نمط السرد أو الوصف، كأن يروي أحداثا ما أو يرسم ملامح صورة معينة، أو يسرد وقائع طرأت في وقت ما و في حضارة ما، أو يتحدث عن حدث سياسي وقع خلال فترة معينة إلخ.

• **حجة المثل:** و هي الحجة التي تقوم على التمثيل بمثل مسرود و مشهور عادة ما يكون استطرادا أو تقوم على ذكر مثل سائد من أمثال العرب الشائعة في الاستعمال.

• **حجة الإحصاء:** و هي الحجة القائمة على العدد الكمي الذي يوظف للدحض و الإثبات فيسعى بذلك الملقي يجمع إحصائيات دقيقة و جمع عينات صادقة من أجل إثبات صحة أطروحته، بالدليل القطعي من الواقع الفعلي.

• **حجة التعريف:** و يطلق عليها حجة الجد و هي التي تقوم فيها المحاج بالتعريف اللغوي و الاصطلاحي للموضوع الذي يريد الخوض فيه أو الأمر الذي يريد إثباته السامع و القارئ، أكثر فيتفاعل مع الخطاب أو النص بفعل مدى مصداقية تلك المعرفة المعطاة، و من اكتساب قدرة معرفية جديدة واضحة، فهم الموضوع ليبدأ بالتعريف الدقيق و الشامل.

كما يورد طه عبد الرحمان ثلاث ناتجة عن أصناف الحجاج و هي:

• **الحجة المجردة ، أو الحجة التجريدية:** و هي بناء استدلالي مستقل بنفسه ، و ليست إلا مظهرا فقيرا من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي أو رتبة دنيا من مراتب هذا الاستدلال على أن الاستناد إليها لا يقع إلا عند إرادة تقليد الأمر الصناعي و تبني أصلا على اعتبار السورة، و إلغاء المضمون و المقام¹.

• **الحجة الموجه أو التوجيهية:** و هي فعل استدلالي يأتي به المتكلم، و إن تعدت الحجة المجردة بفضل اعتبارها لمقام المدعي، قصدا و فعلا، فإنها لا ترقى إلى مستوى الوفاء بموحيات الاستدلال في الخطاب الطبيعي، إن تتبني أصلا على اعتمار الفعل المخاطب، و إلغاء رد فعل المخاطب².

• **الحجة التقويمية أو المقومة :** و هي فعل استدلالي يأتي به المتكلم بغرض إفادة المستمع مع نهوض المستمع بتقويم هذا الفعل و تقوم بما ينطوي عليه الاستدلال في الخطاب الطبيعي من أسباب الثراء و الاتساع، إذ تتبني أصلا على اعتبار فعل الإلقاء و فعل التلقي معا³.

(1) طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان ص 226.

(2) المصدر نفسه ص: 228.

(3) المصدر نفسه ص: 282 – 254.

المبحث الثاني: تعريف النص الحجاجي.

النص الحجاجي هو نوع من النصوص التي تتضمن طلبة من الحجج، يؤتى بها للإقامة الدليل على صحته رأي أو بطلان، و هو إما موجه إلى فرد خاص أو إلى جمهور عام، لإقناعه بتغيير موقفه السياسي، أو مذهبه الفكري أو اعتقاده باطل أو فكرة معينة... إلخ. و هو كثيرًا ما تمتزج فيه الرؤية الذاتية بالرؤية الموضوعية فبذلك يختلف تنوع الحجج حسب تنوع المواضيع و من ذلك، حجج مستعملة في الطبيعة، و الرياضة ذات غاية موضوعية، غاية الصرامة، و يعرفه الروماني جاكسون: "المص خطاب تركب في ذاته و لذاته" ¹ فربطه بالخطاب.

1- مراحل بناء النص الحجاجي:

إنّ النص الحجاجي بناء لغوي يختلف عن غيره من النصوص لكونه يبني بناء انفعاليًا مدعومًا بأدوات و وسائل توظف لغرض الإقناع و التأثير، و أن تتوفر على مقومات النص الحجاجي بنية و أسلوبًا، فيكون في بعض النصوص عرض الرأي المخالف أولاً ثم السعي إلى دحضه بالحجة و البرهان معتمدًا في ذلك مجموعة من الحجج نحو تأصيل الأطروحة المدعومة انتهاء بالنتيجة أو الاستنتاج، أو العبرة التي هي بمثابة الحقيقة التي تنتصر للعقل و تؤسس لحضوره، وقد نجد في نصوص أخرى عرضًا مباشرًا و صريحًا للأطروحة المدعومة في مسلمة غير قابلة للدحض خصوصًا إذا كانت ذات مرجعية دينية يسعى إثباتها محملًا العقل فيها، لذلك يلاحظ الدارس لهذه النصوص أنّ ترتيب أقسامها قد لا يستجيب دائمًا للبنية النظرية للنص الحجاجي: أطروحة مدعومة /سيرورة حجاج/ نتيجة أو استنتاج أو عبرة. و تعتبر البرهنة منطلقًا أساسيًا و استراتيجيًا في بناء النص الحجاجي و هي كانت لا تخلو من الذاتية، فإنها توظف عمليات عقلية ينتقل بها الفكر من التعميم إلى التخصيص أي إخراج الجزئي مما هو كلي، و الاستدلال الجدلي هو حركة فكرية تنتقل من الأطروحة إلى

(1) نور الدين السد، مرجع سابق، ص:11.

نقيضها ثم إلى نقيض النقيض، و أما الاستدلال السلبي فهو حركة فكرية تقوم على ربط الأسباب بالمسببات.

و يبنى النص الحجاجي وفق مكونات أساسية في شكله العام ففيما تتمثل هذه المكونات؟

2- مكونات الحجاج:

• الدعوى: تمثل نتيجة الحجاج، و هي مراد المتكلم و مقصده من خطابه الحجاجي و الغاية منها التأثير و استمالة المستمع لقبول التصورات و المدركات سواء بطريقة صريحة أو ضمنية تلمحيه.

• المقدمات: تمثل معطيات الحجاج، و هي مجموعة المسلمات و البديهيات التي يؤسس المتكلم على منوالها حاجته، و ترتبط بنتيجة الحجاج ارتباطاً منطقياً.

• التبرير: يمثل بيان البرهنة على مدى تطابق و صلاحية المقدمات للنتيجة المقصودة.

• الدّعاة: تمثل مجموع الأدلة و الشواهد التي يستعملها المتكلم المحجاج قصد تقوية النتيجة عند المستمع بهدف تقبلها.

• مؤشر الحال: يمثل مجموع التعبيرات اللغوية التي تظهر مدى قابلية النتيجة للتطبيق نحو، من الممكن، من المحتمل، يرجح،.....

• التحفظات و الاحتياطات: هي التي يضعها المحجاج في حسابانه مسبقاً لردود أفعال المستمع تجاه النتيجة، الربط المنطقي.

و تكون العلاقة بين أجزاء و مكونات النص الحجاجي علاقة منطقية استنباطية تعتمد القياس المنطقي في الحكم على المقدمات و الدّعاة بمدى صلاحيتها للمحاجة، أكثر من الحكم على النتيجة بالصحة و الخطأ، و الصدق و المغالاة، فهي منطقية أكثر من كونها

تصورية، كما هو الحال في النص غير الحجاجي، إذ جوهر إنشاء رابطة مقنعة بين عبارتين¹.

3- خصائص الحجاج:

- يعتبر الحجاج ظاهرة اجتماعية، فهو يضم عدّة أشخاص منتجين له أولاً و متلقين له ثانياً.
- الحجاج نشاط لساني لا يتم إلاّ باللغة و داخلها سواءً اعتبرت هذه الأخيرة وسيلة أو هدفاً أو كانت لغة ثابتة (جملا و نصا) أو متغيرة كأقوال و تعابير.
- يعدّ الحجاج وجود فكري يتجه نحو الممارسة الآلية و نتحكم فيه معطيات المجابهة و المدافعة قدر الإمكان، لأنّه عملية تسعى إلى خلق التأثير في الآخرين.
- إنّ الحجاج ذو طابع اجتماعي يتم بالطابع التأثيري تتنازع الأفعال العقلية و اللسانية و تسود فيه الحركة و النشاط الذهني و البيولوجي، فهو بحق يؤنس مجالا تداوليا².

4- وظائف الخطاب الحجاجي:

باعتبار الحجاج آلية لغوية يمكن التعامل به في مختلف مجالات التّثاقف العامة التي تسهل و تيسّر عملية التواصل الإنساني، كما يؤدي إلى الإقناع الذي يستوجب التشارك و التعامل بين شخصين أو طرفين متحاورين دون اكراه، فالخطاب الحجاجي يعتمد على مبدأ تحفيز المتلقي و جعله ينجذب إلى عالم المتلفظ و بمشاركته اعتقاداته و أفكاره و إدخاله أو استدراجه شيئا فشيئا إلى لعبة الخطاب و جدليته من أجل أن يبلغ التأثير و الإقناع، و تغيير مواقف و سلوك مخاطبين أو جمهور بحيث يجعله يتقبل نتيجة معيّنة بالارتكاز على ملفوظ أو ملفوظات معطاة من قبل المُخاطب كالأَسباب، البراهين و الأدلّة

(1) محمد العيد، النص و الخطاب و الإتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط.1، 2005 م، ص: 189-191.

(2) عيسى أرابيط، مداخلات لسانية: مناهج و نماذج، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة مولاي اسماعيل مكناس، سلسلة دراسات و أبحاث، رقم 28، 2008 م، ص: 79-80

و الشكل النموذجي القاعدي للحجاج يتمثل في الربط بين المعطيات و النتيجة و قد يكون هذا الربط مؤسسا ضمناً بواسطة ضامن أو سند، و تكون المعطاة هي الظاهرة و السند و هو المضمّر في أغلب الأحيان، و قد يكون صريحاً.

أمّا العناصر الأخرى المكوّنة للمقطع الحجاجي فهي تتأرجح بين الظهور و الإضمّار، و إذا كان تغير الأحوال النفسية و الفكرية هو غاية الأقوال الحجاجية فإن للحجاج وظائف صغرى تؤدي في مجموعها تلك الغاية الكبرى، فالحجاج أداة تسعى إلى تحقيق الوظائف و الأدوار التالية:

- إفحام الخصم و إقناعه بمشروعية و صلاحية الموقف.
- يهدف الحجاج إلى تأسيس موقف ما، و من هنا يتوجّه إلى متلقي، فيحاول تحقيق قبول و موافقة ذلك المتلقي.
- يعتمد الحجاج على تقديم أكبر عدد من الحجج مختارة اختياراً حسناً و مرتبة ترتيباً محكماً، و تأتي بالتدرج من الأهم فالأهم لتترك أثراً في المتلقي و هذه الخاصية تجعله يتميز عن البرهنة.
- يتعلق الحجاج بالخطاب الطبيعي من جهتي الاستعمال و المضمون و ذو فاعلية تداولية جدلية.
- يهدف الحجاج إلى جعل عقل المتلقي ينخرط في الأطروحة أو الدعوى بالحجة البالغة، و مدى يقينية المعطيات و منطقيتها و ثبوت مصدرها.

المبحث الثالث: تصنيف الخطاب القرآني.

تمهيد:

لقد توافر في القرآن الكريم من المعطيات ما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه، كالكلمات، التراكيب، و الصور و هي تتكرر فيه تكرارًا جعل منها خصائص أسلوبه المميزة¹، فالخطاب القرآني لا يقصّ قصة إلاّ ليواجه بها حالة ولا يقرّر حقيقة إلاّ ليغيّر بها باطلاً، فهو يتحرك حركة واقعية حيّة في وسط واقعي حي، فقصص القرآن الكريم فيها عبرة للمؤمنين و الناس أجمعين و ليس لمجرد الامتناع الفيني و حسب، و التكرار في القرآن الكريم تقرير للكلام لأنّ الكلام إذا تكرر تقرّر، فقد عمد القرآن إلى هذه الآلية من أجل تأكيد أحكامه و ترسيخها في الأذهان حتى فقدت سمة من سماته الحجاجية.

و كون القرآن خطاب، فهو إذن حجاج، فالخطاب يقتضي الإقناع و التأثير كما نجد ذلك عند "بنفينست" "BENVENISTE" " فالخطاب في أعمّ مفاهيمه " كلّ قول يفترض متكلماً و سامعاً مع توفر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع"².

فقد عدّ البلاغيون العرب الخطاب القرآني خطاباً حجاجياً بالدرجة الأولى و ذلك لتوظيفه الكثير من الأساليب الحجاجية التي تهدف إلى استمالة عقل المتلقي و من ثمّ التأثير فيه بتقويم سلوكه و تهذيب نفسه، و ممّا يثبت أنّ القرآن الكريم خطاب كثرة المخاطبين في النصّ القرآني و هم نوعان: قسم مذكور باسمه أو بضمير الخطاب شأن خطاب الرسول (ص) و خطاب بني إسرائيل و خطاب الذين آمنوا..... و هؤلاء هم المتلقون الأولون و يمثلون في الاصطلاح الحجاجي "الجمهور الخاص" و قسم آخر مذكور في القرآن الكريم لكنّه غير معين و هم جمهور المستمعين على مرّ العصور، و هو ما يُصنّف عليه "بالجمهور العام" و الخطاب القرآني حسب "الزركشي" أنواع كثيرة: " خطاب تهيج، و إغصاب و تشجيع و تحريض و تنفير و تعجيز و تحسير و تكذيب ز تسريف..³

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص:56.

(2) المرجع نفسه، ص:6.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن.

و يضيف عبد الله صولة قائلاً: "و القرآن فضلاً عن كونه خطاباً موجهاً إلى متلقٍ فعليٍّ أو محتملٍ مسرَّحٍ على ركحِهِ تتحاور الذوات و يحاج بعضها بعضاً، فهو تكثر فيه بصفة لافتة للانتباه، حكاية أقوال الكافرين و الردّ عليها' (...) كما تكثر فيه حكاية، أقوال المتخاصمين و المتخاطبين على اختلاف أنواعهم، عموماً تمثل مشتقات مادّة ' (ق.و.ل) أعلى نسبة تواتر في القرآن' (حوالي 1730) مرةً يعد نسبة التواتر الخاصة باسم الجلالة" ¹.

و يرى طه عبد الرحمان أنّ الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية انطلاقاً من أنّه لا خطاب بغير حجاج، فالحجاج شرط في ذلك لأنّ من شروط التداول اللّغوي الإقناع ²، و من مظاهر الحجاج في القرآن الكريم اللّغة، فلا عجب و هو يتواصل باللّغة العربية و هي لغة طبيعية أن يخضع لفاعليتها الحجاجية، و يقوم بتمام مقتضياتها، فالحجاج أصل في كل تفاعلٍ بلغة طبيعية كما تقرّر ذلك في الدراسات اللّغوية و الخطابية المعاصرة، و اللّغة التي يحل بها الخطاب هي التي تمنحه الصفة الحجاجية، لأنّها تمدّه بالعناصر الأولية و القاعدية الحجاجية تبليغاً و تدليلاً و إقناعاً، فاللّغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الأغراض الخارجية فقط و إنما هي أساساً حقيقة، و إذا كان الوجود الطبيعي للّغة هو وجود حوارٍ فهذا يؤكد المنطق الذي بنيت عليه لغة القرآن من حيث هي لغة و حجة بحسب ما ذهب إليه دارس الإعجاز القرآني، أو ما يمكن أن يشرح ضمن ما تسعى إليه سيميائيات التواصل بدراسة أساليب التواصل أي الوسائل المستعملة قصد التأثير، و هذا يعيدنا إلى الوظيفة الأساسية للّغات ³. القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين متجهاً إلى الإنسان و أمراً إياه بأن يقرأ و يفقه عن ربه، فلفهم الخطاب القرآني وجب فهم لسانه و فقهه، إذ نعتبر اللّغة العربية هي المدخل الرئيس لفهمه. و لهذا السبب ظنّ البعض أنّ القرآن الكريم خاص بقوم العرب دون سائر الأقوام، لأنّه نزل بلغتهم، ولا سبيل إليه إلاّ من جهت لغتهم، و نسوا أن

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص:46.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص:446.

(3) ابي الحسن علي بن عيسى الروماني، النكت في إعجاز القرآن، تح محمد خلق الله و محمد زغلول سلام، ط2، 1968م، دار المعارف، القاهرة.

القرآن فوق لغة العرب، يقول في ذلك الدكتور " مصطفى الرفاعي " : " و لقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها و وجه تركيبها كأنها فوق اللغة ، فإن أحدا من البلغاء لا تمتنع عليه ، فصح هذه العربية متى أرادها ، وهي تعد في الدواوين و الكتب ، ولكن تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه ، و إن اتفقت له نفس الألفاظ بحروفها ومعانيها ، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتع فترف به. ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية و البيانية التي هي طبيعية فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية اللغة "(1) فقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله و كثيره.

فلسان القرآن العظيم يتفرد عن لسان العرب ، فهو إن كان يتصل به من وجهة الألفاظ فهو ينفصل عنه من جهة الأغراض، و علاقة لغة العرب بلغة القرآن هي علاقة النسبي بالمطلق، فلغة القرآن إذن لغة مطلقة شاملة و مستوعبة العرب و غيرهم من الأقوام.

و قد كان القرآن الكريم في سعيه لإرساء عملية حجاجية صحيحة، حريصاً على مراعاة شروط الخلق و درجات الاعتقاد و مدارك المتلقي و أوضاعهم الزمنية و المكانية استجابة لدواعي الإقناع و مسلكيات التخاطب و أنماطه السلوكية و تبيانها البيانية و أسسه المنطقية و سلمية الاستدلالات و حركية الأفعال الحجاجية² فهو في أكثر من موضع يؤكد على دور الحجة في الإقناع و طرق مختلفة أي بحسب قدرات الناس العقلية و العاطفية، فمنهم من يُقنع بالفكرة عن طريق الاستدلال المنطقي كالقياس و التمثيل و الاستقراء، كما يذهب الزركشي الذي اصطنع البرهان للتعريف بعلم القرآن و قد اشتمل على جميع أنواع البراهين و الأدلة و الحجج و ما من برهان و دلالة و تقسيم و تحديد شيء من كليات المعلومات العقلية و السَّمعية إلا و كتاب الله قد نطق به³.

و منهم من يقنع بالمشاعر و الوجدانيات و لعل في اختلاف مستويات التلقي أيضاً ما يؤكد حجاجية القرآن الكريم لأنها خاصية أساسية من خصائص الخطاب الإقناعي.

(1) مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان 1410 هـ/ 1990 م، ص: 226.

(2) أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار، المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطابات، جامعة وهران، ط1، 2004، ص: 87.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص: 34.

المبحث الثالث: تصنيف الخطاب القرآني.

1-نواع الخطاب في القرآن الكريم :

إن الخطاب هو الكلام الموجه للآخر على وجه الإنشاء أو الإخبار و الخطاب في القرآن الكريم هو خطاب الله للمكلفين طلبا و نهيا ، ترغيبا و ترهيبا ، ووعدا ووعيدا و إخبارا و تذكيرا ،اعتبارا و إنذارا و غير ذلك من أنواع الخطاب.

و من تأمل الخطاب القرآني في أسلوبه و بلاغته ، وفي تصريحه و تنويعه .استبان له وجه بديع من أوجه الإعجاز القرآني ،و خصية من خصائصه الأكيدة ،وبيان ذلك في شمولية الخطاب القرآني لجميع أصناف المخاطبين . على اختلاف أجناسهم ،و امكنتهم و ملكهم ، و هذا فارق بديع في نوعية الخطاب القرآني البليغ عن غيره من سائر الخطابات ، حيث إننا إذا نظرنا إلى الخطاب البشري مهما بلغ من بلاغته و روعته ،وفصاحته وبيانه . فإنه لا يعني بجانب على حساب جانب آخر و لا يقيم الميزان على الحق بينهما ،فخطاب البشر يعثر به النقص و الخطأ ولا يصل إلى ذروة الكمال أبدا. وقد نلاحظ في الخطاب القرآني حينما تتدبر آياته ، أنه يبتسم في نداءاته و توجيهاته..... حيث إنه لم يجعل نداءه في فئة دون فئة أخرى أو جنس أو أ هل دين دون غيرهم . بل شمل ذلك الخطاب أصناف العلمين من المخاطبين على تنوع أجناسهم و ألسنتهم و أديانهم التي يدينون بها .

فقد خاطب الله سبحانه الناس بصيغة في بعض آيات الكتاب المبين وخطاب

الأنبياء و المرسلين عليهم السلام ، كما خاطب أصناف الناس من المؤمنين و الكفار و المشركين ، و أشار إلى المنافقين في آيات أخرى ، و هذا الأمر يعلم بالتتابع و الاستقراء لآيات القرآن الكريم.

و نستخلص من دقة الجانب الخطابي في القرآن الكريم أنه يدعوا إلى المطالب العالية و الفضائل السامية ، التشريعات الهادية الموجهة إلى كل حيز إذ تنوعت أساليبه و صور الدعوة فيه و نوع أيضا المجالات المخاطب بها ، وسنحاول أن نوردها فيمل يلي :

مجالات الخطاب لأصناف الناس	مثال في القرآن الكريم	السورة + الآية
خطاب القرآن للناس عامة: لقد وجه الله تعالى الخطاب لعموم الناس في غير موضع من القرآن الكريم و لكل خطاب هدفه و مقصده	قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا	الأعراف: 158
	قال أيضاً: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ	الحج: 49
	و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	فاطر: 3
خطاب القرآن للأنبياء و لمرسلين: و ذلك لأمرهم بدعوة الناس إلى التوحيد و نشر دين الإسلام.	قال تعالى: وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ	هود: 35-36
	و قوله سبحانه و تعالى في شأن محمد (ص): يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ	التحريم: 9
خطاب القرآن للمؤمنين الصالحين: وقد ورد هذا الخطاب خاصة بصفة الإيمان	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا	البقرة: 104
	قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	الأحزاب: 56
	قال تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا	آل عمران 103
	قال تعالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا	النحل: 95
	قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ	آل عمران 64
خطاب القرآن لأهل الكتاب و غيرهم من المشركين: و ذلك لدعوتهم إلى اتباع الهدى و الحق و إلى الحكم بما أنزل الله و إلى الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه و سلم.	قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ	آل عمران 98

التوبة: 53	قال تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ	<u>خطاب القرآن للمنافقين و أمثالهم:</u> خاطب الله المنافقين لتحذيرهم من النفاق، و وبخ فعلهم، و أمرهم بالإخلاص لله و رسوله، و ترك الرياء . فعد أيضًا الصفات التي يدخل بها العبد النفاق و بينها لمبادرة المخلصين.
التوبة: 81	قال جل و علا: قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ	
التوبة: 65	قال سبحانه و تعالى: قُلْ أِبَالَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ	
البقرة: 40	قال أيضًا عز و جل: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ	<u>خطاب النوع:</u> و هو خطاب موجّه لنوع معين من الناس دون غيرهم و يكون عبرة لسائر الأقسام.
فصلت: 11	و قال أيضًا: فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ	<u>خطاب من لا يعقل، خطاب من يعقل:</u> كالخطاب في الآية للسماء و الأرض.
النحل: 68	و قال سبحانه و تعالى: وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ	
الصف: 4	و قال أيضًا: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ	<u>خطاب التشجيع و التحريض:</u> و هو الحث على الاتصاف بالصفات الجميلة.
البقرة : 23	قال سبحانه و تعالى : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ	<u>خطاب التعجيز .</u>

هذه أهم أنواع الخطابات التي تضمنها القرآن الكريم ،و هناك بعض أنواع الخطابات الأخرى مثل خطاب المؤمنين للكافرين ،و خطاب الكفار للمؤمنين كالذي ذكر في سورة الأعراف أو خطاب المؤمنين للمؤمنين كما الذي ذكر في سورة الطور و خطاب الكفار للكفار كالذي ذكر في سورة الأعراف و لم يتسنى لنا ذكرها لكثرتها وتنوعها كخطاب الجنس، و خطاب المدح والذم وخطاب الكرامة والإهانة والتحكم و خطاب الجمع بعد الواحد. و كذل خطاب الاثنين بلفظ الواحد ،و خطاب الجمع بعد الواحد ، و كذلك خطاب الاعتبار و التتويع و الحزم و التتفير و التحنن و الاستعطاف و غيرها كثير من أنواع فرعية واردة في كتب علوم القرآن .

فهناك من العلماء من قال بأن الخطاب في القرآن الكريم على خمسة عشر وجها ، وقال غيرهم على أكثر من ثلاثين وجها و الله أعلم.

و قد اكتفينا في هذا البحث بذكر الأنواع المهمة التي بينها في الجدول لكونها كافية بالغرض لفهم الخطاب القرآني و فهم مجالات الدعوة في القرآن الكريم التي خاطب الله بها المؤمنين و الصالحين من عباده و دعاهم إليه و حثهم على الإتيان و الاستجابة لله و لرسوله صلى الله عليه و سلم و الابتعاد من كل ما نهاهم عنه ليحصل لهم بذلك الهداية و السعادة في الدنيا و الآخرة.

2- الأسس التي يقوم عليها الإقناع في القرآن الكريم:

يعتبر القرآن ركيزة مهمة من ركائز العمل الإسلامي الذي يهدف إلى دعوة الناس إلى دين الله ويرتكز على مجموعة من الأسس تتمثل في:

• يسر الدين في مضمونه أو وضوحه في معناه في لفظه ومعناه:

فيقوم الإسلام على شهادة [لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله] هذه العقيدة السهلة لا تتطلب خبرة طويلة أو تجربة عميقة، ولا تثير أية مصاعب عقلية للفهم والاستيعاب فهي تُخاطَبُ أدنى المستويات العقلية والإدراكية للإنسان نظراً لخلوها من التداخلات والحيل النظرية واللاهوتية، فاستيعابها لا يتطلب جهد ولا معرفة واسعة، ولا خبرة بالأصول العقدية، أو الفقه....

فتتميز الدعوة إلى الإسلام بالبساطة في اللفظ والوضوح في المعنى، واليسر في المعالجة، فيخاطب فطرة الناس جميعاً ويتعامل مع ظروفهم ويلبي حاجاتهم ورغباتهم، ويعالج قضاياهم ويردُّ عن تساؤلاتهم، فهو دين يُسر وليس عسر على الصغار والكبار لقول المولى عز وجل: ﴿...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾¹.

• -الثراء والتنوع والتطور:

تتميز الدعوة الإسلامية بالثراء في مادتها والتنوع في أساليبها والتطور في معالجتها، ويأتي ثراء هذه الدعوة انطلاقاً من النظرة الشمولية للدين الإسلامي الذي جاد شاملاً جامعاً لحياة المسلمين في شتى المجالات، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتطرق إليها ابتداءً من وضع أصول الحياة الأسرية إلى إعداد الجيوش. لقوله تعالى: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾²، كما تتعدد أساليب الدعوة الإسلامية مع ثبات ركائزها وأهدافها لأن عملية الإقناع تحتاج إلى أسلوب القوة، واللين والمواجهة بالخطأ وأسلوب المحاكمة

¹ البقرة 185.

² النحل 89.

العقلية وأسلوب التعميم وعدم المواجهة، بحيث تختلف اصول عملية الإقناع من وقت لآخر ومن حل إلى حل بحسب مقتضيات الأحوال والأزمات.

فالقائم بعملية الإقناع يختار من الأساليب ما يلاءم مخاطبة شريحة عمرية معينة، ولا يصلح مع غيرهم، ولتطوير الأسلوب الواحد من ترغيب إلى تهيب بحيث يحاول استعمال شتى الأساليب والطرق بفطنة للوصول إلى الإقناع، فالأساليب الإقناعية اجتهدية ومتطورة. خاصة وإن كان المصدر "مصدر الإقناع" موثوقا كالقرآن الكريم في الدعوة الإسلامية.

• المنطق السليم والاستناد إلى البرهان الصحيح:

فارتفاع قيمة المرء ترتبط بارتفاع اهتماماته العقلية فإن من أهم الأهداف الإصلاحية لهذا الدين هو تحرير البشر من التقاليد والخرافات الباطلة وتنشئتهم على التفكير الحر، لذلك حارب الإسلام الوثنية لأنها انحطاط بالعقل وعمى على البصيرة، وحين طلب بعض المرتابين المعجزات المادية التي تثبت صحة هذه الرسالة، كان ردّ الله عليهم أن ينظروا فيما احتوته آيات القرآن الكريم من دلائل عقلية وصور كونية، تثبت صحة ما تضمنته هذه الرسالة وقد اقتضت حكمة الله أن يكون منطق العقل تاج هذه الحياة لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ²⁰﴾ سورة العنكبوت، وقد أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإسلام بمنطق العقل هو من اتبعه بإحسان وفي ذلك يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹⁰⁸﴾ سورة يونس، وفي الدعوة إلى التدبر والتفكير بالعقل آيات كثيرة، لذلك فإنّ الجدل العقلي تصعب ممارسته بمعزل عن حرية العقل، فليس الإنسان أن يجادل إلّا فيما لا يقتنع به، ولا يسأل إلّا عما لا يطمئن إليه قلبه، لذلك اشترط دين

الإسلام على من يتلقونه أن يتلقوه بعقولهم، لذلك على المخاطب نهج هذا المنهج لتحقيق الإقناع.

• الإقناع بالكلمة الطيبة والأسلوب الحسن:

يعتمد الإسلام الكلمة الطيبة والحكمة البالغة من غير عصبية ولا عنف، فلننظر إلى قلوب الناس ونستهويهم ونشرح صدورهم لخطابك عليك أن تحرص على راحتهم، سعادتهم، مستقبلهم، شعورهم، مواقفهم... الخ. لقوله تعالى: ﴿فِيهَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ¹⁵⁹﴾ سورة آل عمران.

والحكمة في عملية الإقناع أمر مطلوب، والقائم بها مأمور بتوخي الحكمة حين يمارس الإقناع ومن الحكمة مراعاة أحوال الجمهور فلا نستعمل خطاب بأسلوب واحد مع الصبي، والمرأة، والعجوز والرئيس، والمرؤوس، والهادئ والغضوب، إذ يعرف الإمام ابن القيم رحمه الله - الحكمة بأنها "فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي"، فيكون البدء في الخطي بالأهم والأقرب إلى الأذهان واختيار أسلوب وسط من الذكاء في الخطاب.

• التدرج المرحلي أثناء القيام بعملية الإقناع:

وذلك بما يتناسب مع طاقات الجمهور الاستيعابية وقدراته العقلية، فبالترتيب يكون استقبال الإنسان للرسالة على جزعات تتوافق مع إمكانياته وملكاته، وهذا المنحى الإسلامي يتفق مع سنن الحياة وطبيعة الحق فما كُوتَتِ الجبال إلا من الحصى، وما خلق الله السماوات والأرض إلا بمراحل، وكان قادرا على أن يقول لها: كوني، فما تملك إلا أن تكون، ولكنه خلقها في ستة أيام أي في ستة أطوار أو أن منة لا يعلمها إلا الله كما خلق الإنسان في مراحل لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا

وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ⁵⁴ سورة الروم، التدرج المرحلي من ولادته حتى وفاته وأمثلة التدرج كثيرة في القرآن الكريم، لذا يعتبر التدرج أساس الإقناع من أجل تحقيق الاستيعاب وجذب واستمالة السامع والتأثير فيه ولا يتحقق أي هدف ومبتغى بين يوم وليلة، فينبغي الأخذ بعين الاعتبار الإعداد والتهيئة ثم سمو الهدف ومبلغ الإمكانات ثم كثرة المعوقات والصعوبات، وكذلك من أمثلة التدرج مثلاً في التعليم يبدأ بأحرف الهجاء إلى الكلمات فالجمل والنصوص، فالقاء جميع المعارف على المتلقي دفعة واحدة ستؤدي إلى ضياع الكل، فلن يمسك منها ولا معلومة وستختلط عليه الأمور أكثر وتشتت ذهنه، فللوقت أيضاً دور مهم في عملية الإقناع وللصبر أثره الفعال في تحقيق هذا الهدف، وحتى أن أعظم حجة على أهمية التدرج في الإقناع نزول القرآن بالتدرج فلو نزل دفعة واحدة لصعب على الخلق ولشق الأمر عليهم من امتثال أحكامه.

وفي الأخير نقول أن نجاح العملية الإقناعية يكمن في إتباع هذه الأسس التي نصّ عليها القرآن المبين، فهو خير دليل، وأبلغ حجة، وأصدق مصدر للإنسان.

3- الإستمارات المستخدمة في الرسالة الإقناعية في القرآن الكريم:

تعدّ آلية التخاطب إحدى وسائل القرآن لتحقيق الإقناع والتواصل والتأثير، بحيث تعتبر المنشط للعقول، والمحرك للقلوب والإقناع في القرآن الكريم عملية تتكون من شقين:

- الإقناع بالمعرفة العقلية:

وذلك باستهداف العقل وهذه يسهل توفيرها لمن يراد إقناعه من خلال إقامة الحجة الواضحة البيّنة، فإتباع الطرق السليمة للتفكير يمكن الوصول إلى حجة عقلية منطقية قابلة لأن تؤدي إلى قناعات¹، فالمحتوى المعرفي لأي علم من

(1) ينظر الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، ط7، 1407هـ، 1987م، ص29-30-37

العلوم يعتمد اعتمادا كلياً على مصدر تلك المعرفة، ويترد معه اطرادا مباشرا فإذا كان المصدر مدركا لكل صغيرة وكبيرة وملما بكل جزئية في علم ما من العلوم فإنه يترتب على ذلك علو قدر تلك المعرفة المستقاة من ذلك المصدر وبما أن مصدر المعرفة في المنهجية الإسلامية هو الله سبحانه وتعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فإن من إيجابيات هذا المصدر المباشر أن المتلقي يشعر بأمن واطمئنان في أنه سيجد الإجابة من هذا المصدر عن كل سؤال يخطر على باله كالظمان الذي يبحث عن قطرة ماء فيجد أمامه نهرا عذبا ليرتوي منه¹، فيتم الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة "لا إكراه في الدين"²، لأن ما يهم معياريتها هو عقلنة الإرادة الإنسانية بدون عنف أو إكراه³ وهذا ما نجده في كتاب الله القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان³، وتعتمد الإستimalات العقلانية في الإقناع على:

1- الاستشهاد بالمعلومات والأحداث الواقعية.

2- تقديم الأرقام والإحصاءات.

3- بناء النتائج على المقدمات.

4- تفنيد وجهة النظر الأخرى.

وفي القرآن الكريم أمر الله عز وجل الإنسان بالتدبر والتفكر في آياته أي أعمال العقل.

(1) مبارك محمد علي مجذوب، خلق الإنسان في القرآن (مدني، السودان: جامعة الجزيرة، معهد إسلامية المعرفة، دار المركز الإسلامي الأفريقي للطباعة 1994م، ص02.

(2) سورة البقرة 258.

(3) جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص12.

(4) صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص182

-القبول القلبي:

أو ما يسمى بالاستمالات العاطفية التي تستهدف على وجدان المتلقي وانفعالاته، وإثارة حاجاته النفسية والاجتماعية أو مخاطبة حواسه لما يحقق أهداف القائم بالاتصال...و تعتمد الإستمالات العاطفية على:

1- استخدام الشعارات والرموز وتعتمد في ذلك على خاصية التبسيط لعملية التفكير واختزال مراحل المختلفة عن طريق إطلاق حكم نهائي في شكل مبسط نستدل بقوله تعالى في الكتاب المبين: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ⁴﴾، فالشعارات تسهل على المتلقي الحفظ والترديد، أما الرموز فتشير إلى تنظيم التجارب الإنسانية.

2- استخدام الأساليب اللغوية، مثل التشبيه، الاستعارة والكناية أو الاستفهام الذي يخرج عن كونه استفهاما حقيقيا إلى معنى آخر مجازي كالتوبيخ والتبكي ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا⁵﴾.

فإن النتيجة المنطقية الناتجة عن التفكير السليم إن لم يستقبلها القلب ويطمئن إليها لا تفيد شيئا لكن إذا قبلها صارت قناعة وتولد منها الإيمان.

فمن بين المداخل المختلفة للإقناع: محاولة التغيير في البناء النفسي للفرد بإثارة عواطفه واتجاهاته ومن ذلك إثارة توقعات المتلقي بأن قيامه بسلوك معين سوف يجنبه أخطارا ما أو حرمانا، أو يؤدي إلى فقدانه القبول الاجتماعي.

وفي القرآن الكريم تقع آيات الترغيب والترهيب ضمن هذه الإستراتيجية، وهي كثيرة مقصدها الزجر من ارتكاب محظور أو الحث على امتثال مأمور وغاية الكل صلاح الفرد وفرزه ونجاته لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(1) البقرة آ 189

(2) مريم آ 4.

بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا⁶، فالقرآن يسعى إلى التخيير في البناء النفسي للفرد عن طريق استعمال إستملات التخويف أ والتهديد التهديد، كي تتضمن في الوقت نفسه التوصيات التي بإمكان الفرد تجنب أخطار التهديد، ومن خلال القيام بالتوصيات تتحوّل إلى سلوكات تتفق مع أهداف القائم بالاتصال.

فالإقناع إذا معرفة الشيء بالعقل ومن ثم قبوله بالقلب، أما المعرفة العقلية دون القبول القلبي فهي جحود، ولذلك قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾⁷، فهم عرفوا الحق لكن لم تنفذ له قلوبهم، لا لضعف الحجة ولا لخفاء الدليل بل لأنهم - لظلمهم وإرادتهم العلو - ما أرادوا الاقتناع، فكان جهلا وتكذيبا وجحودا.

فهذه هي إستملات وأساليب الإقناع التي اتفق حولها كثير من الباحثين في هذا المجال، ويوصي عدد منهم بضرورة اختيار الرموز اللغوية الواضحة والمفهومة والمألوفة والبعد عن الألفاظ والرموز المجهولة مع مراعاة خصائص الجمهور فيما يتعلق باستخدام قواعد النحو والصرف، والأساليب البلاغية، وهذا كله مما يؤثر على يسر القراءة وسهولة التعرض للوسيلة الإعلامية، فخير مثال ونموذج الأمة التي هي أقوم، فلا بد من علماء الأمة تبليغ هذه الرسالة العالمية "رسالة القرآن الكريم" من نقل مضامينها إلى أرجاء العالم كافة بأسلوب مقنع، انطلاقا من قول علماء الأصول "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

⁶ الإسراء آ 90-10.

⁷ النمل آ 14.

خلاصة:

لقد اكتسب الخطاب أهمية كبيرة قديماً وحديثاً، وقد تعددت أوجهه بين ما هو شفوي وما هو مكتوب، ويعدّ الحجاج في الخطاب ركيزته الأساسية في التواصل وإيصال الأفكار وتحقيق المقاصد، وبلوغ الأهداف بين المتكلم والمتلقي، فتجد الخطاب يتضمن مختلف أساليب الإثارة والإقناع والتحاور، وقد اتضح لنا ذلك في دراستنا للخطاب القرآني الذي شكل بناءً تبليغياً مؤسسا وفق مقدمات خطابية تواصلية، تخاطب وتحاور الآخر متخذاً الإقناع سبيلاً يسلكه في استقطاب الناس نحو عقيدة الإسلام، واستطاع أن يؤثر في متلقيه لاعتماده استراتيجيات تواجه روح المتلقي وعقله وضميره، فكان النموذج الأمثل للدراسات المختلفة، فالخطاب القرآني في هذا المقام ليس مجرد أسلوب للتبليغ وطريقة للتعبير عن الرأي والموقف، لكنه أيضاً الوعاء المعبر عن العقيدة والروح والفلسفة والمذهب، لذلك وجب الإقتداء به وإعماله في المجال الإنساني والاهتداء به نحو عمارة الأرض وإصلاحها، وذلك بمعرفة مكنوناته ومداخله، الجامع لمصالح الدين والدنيا، والحاوي لكليات العلوم والجامع لتراث الأولين.

فإنه لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ القرآن الكريم هو أسمى كلام إبداعي حي من حيث جلّ مستوياته الصوتية واللفظية والتركيبية والدلالية، ومن حيث تخطيه للنصوص البشرية على كثرتها وقوتها واختلافها زماناً ومكاناً، وهو لم يتبوأ هذه المنزلة إلا بوصفه بلاغ الله المقدّس.

فقد تجاوز الخطاب القرآني بالفعل الفصل بين الإمتاع والاقتناع، ولا بس بين

صرامة الحجّة وجمالها فكانت الأساليب هي ثوب الحجّة الجميل وكان منطق الخطاب هو

الحجّة المكيّة، مزوجة تستجيب للطبيعة والواقع حيث لا غنى لقوّة العقل عن جمال العاطفة

وبالعكس، وهذا هو المثال والمعجز وتلك مرتبة الخطاب القرآني

الفصل الثالث:

آليات الحجاج في سورتي "الكهف و القصص".

المبحث الأول:

وصف المدونة.

المبحث الثاني:

آليات الحجاج

المبحث الأول: وصف المدونة.**1- سورة الكهف:****أ- تسمية السورة:**

"الكهف" هي السورة الثامنة عشر حسب ترتيب القرآن الكريم، وتعداد آياته 110 آية، وهي مكيّة وسميت "الكهف" لما فيها من المعجزة الربّانية في تلك القصة العنيفة "قصة أصحاب الكهف"، تبدأ بأسلوب الثناء وهي إحدى السور الخمس التي بُدئت بـ"الحمد لله" تحدّثت السورة عن قصة أصحاب الكهف، وسيدنا موسى والرجل الصالح، ذي القرنين وقصة إبليس واستكباره عن السجود لآدم.

ب- أسباب النزول:¹

ذكر محمّد بن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النصر بن الحارث وعتبة بن أبي محيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم سلوهم عن مهد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله (ص) ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا: إنكما أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالوا: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل، وإلا فرجل متقول فثروا فيه رأيكم، سلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنّه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النصر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله على أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله (ص) فقالوا: يا محمد ! لأخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله (ص): (أخبركم غدا عمّا سألتكم عنه)، ولم يستثن فأنصرفوا عنه، ومكث رسول الله (ص)

⁽¹⁾ منتديات شبكة الفرقان الإسلامية، قسم علوم القرآن الكريم والسنة النبوية، سؤال ما سبب نزول سورة الكهف؟.

خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة، فقد اصحبنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله (ص) مكث الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من خبر الفتية والرجل والطواف وقول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ * قُلِ الرُّوحُ﴾.

ج- فضل سورة الكهف¹:

1- عن أبي الدرداء عن النبي قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال.

2- عن أبي العالية قال قرأ رجل سورة الكهف في الدار دابة فجعلت تنفر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت فذكر للنبي قال: اقرأ فلان فإنها السكينة نزلت للقرآن.

3- عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله (ص) "من قرأ من سورة الكهف عشر آيات عند منامه عُصِمَ من فتنة الدجال ومن قرأ خاتمتها عند رقاده كان له نورا من لُذُنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ يومَ القيامة.

د- مضمون السورة:

بدأت سورة الكهف بتمجيد الله وتقديسه، وأنذرت الكافرين من عذاب الله إذا استمروا بالعصيان من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا⁽¹⁾...وَأَنَا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا⁽⁸⁾﴾ ، وتعرضت لقصص عديدة من روائع القرآن في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة والإيمان بعظمة ذي الجلال:

***القصة الأولى:** هي قصة أصحاب الكهف، تبين التضحية في سبيل العقيدة، الفتية الذين هربوا بدينهم إلى الكهف، لينجوا من بطش السلطة الكافرة، نموذج لإيثار الإيمان على باطل

(1) منتديات المصطفية، مخصص للمواضيع الإسلامية العامة، أسباب نزول سورة الكهف، فضل سورة الكهف، سبب تسمية سورة الكهف.

الحياة ورُزُفُها، والالتجاء إلى رحمة الله ، هربا بالعقيدة أن تمسّ، من قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾⁽⁹⁾... مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَصُنَتْ مُرْتَفَقًا⁽³¹⁾ ۞ .

*القصة الثانية: قصة صاحب الجنتين، وهي نموذج آخر للتضحية في سبيل العقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل: المؤمن المعتز بإيمانه والكافر وهو صاحب الجنتين وما فيها من عبر ووعظات، وتوجيهات، فكان صاحب الجنتين معتزًا بماله وأولاده من دون الله أمام فقير مؤمن، كما ضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا ومتاعها الزائل بالماء المنزل من السماء واختلاطه بنبات الأرض ثم تحوّل إلى هشيم تذروه الرياح، فالغرض من ذكر الأمثال الاتعاض والاعتبار، من قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾⁽³²⁾... وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَضَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا⁽⁵³⁾ ۞ .

*القصة الثالثة: قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، وهي قصة التواضع في سبيل العلم وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها عبده الصالح " الخضر " ولم يعرفها موسى عليه السلام، من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾⁽⁵⁴⁾... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا⁽⁸²⁾ ۞ .

وتتضمن القصة ذاتها ما يلي:¹

1- قصة السفينة: لقول رب العزة: ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ مَرَقَهَا ﴾⁽⁷¹⁾ ۞ ، قَالَ

موسى: ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾⁽⁷²⁾ ۞ .

¹ سورة الكهف، المصحف الإلكتروني، www.e.quran.com

2-حادثة قتل الغلام: تابعا المسير فوجدا غلاما فقتله لقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾⁽⁷⁴⁾.

3-بناء الجدار: انطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية وجدا جدارا يتداعى للسقوط ويكاد ينهار فرفعه الخضر بمعجزة له بيده ومسحه فاستقام واقفا قال له موسى لو شئت لأخذت عليه أجرا إذ تعجب وقال أنجازي هؤلاء القوم الذين أساءوا اللقاء بهذا الإحسان لقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَنَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾⁽⁷⁷⁾.

فقال الخضر بعد أن تيقن أن موسى عليه السلام لن يستطيع بعد الآن صبرا ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾⁽⁸⁷⁾.

أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فيصيدون منها رزقا، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة تمرّ في بحره غصبا ويترك التي بها خلل، وأمّا الغلام فكان كافرا وأبواه مؤمنين وخشي أن يرهقهما أي يتعبهما طغيانا وكفرا وأمّا الجدار لغلّامين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك إبقاءه على اليتيمين رعاية لحقهما.

***القصة الرابعة:** قصة ذي القرنين ورحلاته إلى الغرب والشرق، وبناء السد في وجه يأجوج ومأجوج، وترتبط القصة بالعقيدة والإيمان كالقصص التي سبقتها، من قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾⁽⁸³⁾... قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾⁽⁹⁸⁾، ففيها سيرة الحاكم الصالح الذي حارب الفساد بمنهج الله، وبالقوة وأرجع ذلك لرحمة الله وفضله.

3-ختمت السورة الكريمة بالحديث عن يوم القيامة وأحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة، من قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَجْمَعْنَاهُمْ﴾

جمعا⁽⁹⁹⁾... فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا⁽¹¹⁰⁾﴾¹.

فمن كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله، من خلقه سواء كان صالحاً أو طالحاً، حيواناً أو جماداً، ويدخل في النهي الشرك الخفي الذي هو الرياء، وأخرج أحمد وابن سعد عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإنّ الله أغنى الشركاء عن الشرك"¹.

2- سورة القصص:

أ- تسمية السورة²:

"القصص" هي السورة 28 حسب ترتيب القرآن الكريم، وتعداد آياتها 88 آية وهي مكية، وسميت "القصص" لأنّ الله تعالى ذكر فيها قصّة موسى من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلّى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه. كلمة "القصص" مشتقة من الفعل "قَصَّ" ومعناه لغة: إتباع الأثر حتى نهايته، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: وقالت لأخته قصّيه (القصص¹¹) وقوله أيضاً: "ولما جاءه وقصّ عليه (القصص²⁵)"، ولو تتبعنا القصص في هذه الصورة سنجد أنّ وعد الله يتحقق دائماً.

ب- أسباب النزول:

نزلت هذه السورة على سيدنا محمد (ص) وقت هجرته من مكّة إلى المدينة المنورة وقد كان حزينا لفراق مكّة، وذلك مصداقاً لقوله (ص): "والله أحبّ بلاد إلى قلبي، ولو أنّ قومك أخرجوني ما خرجت"، فأُنزل الله سبحانه وتعالى هذه السورة لكي يطمئن رسوله الكريم، بأنّ

(2) د. محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير، من تفسير الإمام الشوكاني المسمّى فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، مكتبة دار الفحاء، مكتبة دار الإسلام، ط5، 1414هـ، 1994م، ص395.

(*) ذي القرنين: اختلفوا في سبب تسميته فقول: إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما، ذكره الثعلبي، والصقائر قرون الرأس، وقيل إنه رأى في أول ملكه أنّه قابض على قرني الشمس فقص ذلك فسمي ذا القرنين، وقيل: إنّما سمى بذلك، لأنه بلغ المغرب والمشرق فكانه حاز قرني الدنيا، وقالت طائفة، إنّهُ لما بلغ مطلع الشمس كشف بالروية قرونها فسمي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها.

(3) أنظر: أسامة، ح "مقال إلكتروني"، هدف سورة القصص، منتديات محاربي

الصحرَاء (منتدى إسلامي)، 2010. www.mimi28.ahla.com montada.com

وعده سيتحقق مثلما حقق الله وعد موسى عليه السلام¹، فنزل عليه جبريل بالجحفة وهو متجه من مكة إلى المدينة فقال له: أتشتاق يا مهد إلى بلدك التي ولدت فيها؟ قال: نعم، فقراً عليه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصص⁸⁵⁵)، فأخبره الله تعالى أنه كما عاد موسى إلى مصر منصوراً، فكذلك سيعود الرسول (ص) إلى مكة فاتحاً منتصراً مصداقاً لوعده تعالى، فسورة القصص بدأت بوعد الله لأمّ موسى بإعادة ابنها إليها بعد أن أوحى إليها أن تلقيه في اليمّ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (7) وهنا يكمن الشبه في قصة موسى عليه السلام وقصة الرسول (ص) والعبرة من القصتين تكمن في اليقين من تحقق وعد الله للمؤمنين أو الكفار والثقة بالله.

ج-مضمون السورة:

تركّز سورة القصص في آياتها على قصة سيدنا موسى عليه السلام في مرحلة الولادة، النشأة، الزواج، العودة إلى مصر، وتحقيق وعد الله لرسوله والمؤمنين. تبدأ بقوله تعالى: "طسم" بحروف متقطعة للدلالة على إعجاز القرآن الكريم، ثم خصص هذه الآيات الدالة على إعجاز القرآن في عرض قصة سيدنا موسى وفرعون لقوله تعالى: ﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون...﴾⁽³⁾، وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذه السورة إلى النبي محمد (ص) في قوله: ﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون... ﴾، أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ثم انتقل إلى إخباره عن فرعون الطاغية الذي تكبر وتجبر في الأرض لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ غَنَّةً كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾⁽⁴⁾، وجاء في تفسير ابن كثير "وجعل أهلها شيعاً أي أصنافاً قد صرف كلّ صنف فيها يريد أمور الدولة... وقوله تعالى

⁽¹⁾ المرجع السابق.

"يستضعف طائفة منهم" يعني بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال¹.

ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك عما ألهم الله تعالى به أم موسى بعد ولادتها له وعن حالتها النفسية بعد أن عرفت أن ابنها قد التقطه من اليمّ أعداؤها، وعن فضل الله عليها ورحمته بها حيث أعاد إليها ابنها لقوله تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾⁽¹³⁾.

ثم بين سبحانه من مظاهر فضله على موسى عليه السلام بعد أن بلغ أشده واستوى وبعد أن قتل رجلا من أعدائه، وكيف أنه خرج من المدينة خائفا يترقب، قال: ﴿ربّ نجني من القوم الظالمين﴾⁽²¹⁾ وقد أجاب الله له دعاءه فنجاه منهم، ويسّر له الوصول إلى جهة مدين، فعاش هناك عشر سنين، أجيرا عند شيخ من أهلها، وتزوّج موسى بعد انقضاء تلك المدة بإحدى ابنتي هذا الشيخ الكبير.

ثم بين سبحانه أن موسى بعد أن قضى المدة التي تعاقد عليها مع الرجل الصالح سار بأهله متجها إلى مصر، وفي الطريق رأى نارا، فلما ذهب إليها أمره الله بأن يذهب إلى فرعون وقومه ليأمرهم بإخلاص العبادة لله عزّ وجلّ وفعل موسى إذ بلغهم رسالة ربّه، ولكنهم كذّبوه، فكانت عاقبتهم كما قال تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾⁽⁴⁰⁾، ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾⁽⁴¹⁾، أي تجبروا وأكثروا في الأرض فسادا، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا ميعاد، لذلك أخذهم الله وأغرقهم في البحر، وبين الله أن من سلك وراءهم وأخذ في طريقهم في تكذيب الرّسل، اجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة.

بعدها أخذت السورة الكريمة في تسليّة الرسول (ص) عمّا أصابه من قومه فذكرت له ما يدلّ على أن هذا القرآن من عند الله تعالى وأمرته أن يتحدّى المشركين به، وبين له أنّه لا

⁽¹⁾ ابن كثير، الدمشقي تفسير القرآن الكريم، ج3، دار الفكر بيروت، لبنان، 2006، ص1390.

يستطيع أن يهدي من يحبّه ولكن الله هو الذي يهدي من يشاء، وحكت جانباً من أقوال المشركين وردت عليها، كما حكت جانباً من المصير السيئ الذي سيكونون عليه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، فدميت الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون...﴾⁽⁶⁵⁾.

ثم جاء الحديث في السورة عن قصة تتعلق برجل كان من قوم موسى: وهو قارون، فأخبرتنا بجانب من النعم التي أنعم الله بها عليه، وكيف أنّه قابل هذه النعم بالجحود والكفود وكيف أن الذين يريدون في الحياة تمنوا أن يكونوا مثله وكيف أن الذين أوتوا العلم قالوا لهم على سبيل الزجر: "ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون" وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا بعد أن رأوا مصرع قارون: ﴿لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَّأَنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁸²⁾. ثم ختم سبحانه هذه القصة، ببيان سنة من سننه التي لا تتخلف فقال تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾⁽⁸³⁾. فجاء الأمر من الله تعالى بإخلاص العبادة والنهي عن الإشراك به فقال: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون﴾⁽⁸⁸⁾.

ومن هنا نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمر من أهمها:

1- تثبيت المؤمنين وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وبأن الله سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلّتهم كثرة كما جعل من موسى وقومه أمة منتصرة بعد أن كانت مهزومة، وغالبة بعد أن كانت مغلوبة، لقوله تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾⁽⁶⁾، أي يريه هلاكهم من على يد المولود الجديد من بني إسرائيل.

2- أنَّ السورة تعطينا صورة زاخرة بالمعاني الكريمة والمؤثرة، عن حياة موسى عليه السلام، فهي تحكي حالة أمّه وأحاسيسها وخوفها عند ولادته، وبعد ولادته وبعد إلقائه في اليمّ وبعد علمها بالتقاط آل فرعون له وبعد ردّ الله تعالى ابنها فضلا منه جلّ جلاله.

كما تحكي لنا ما جبل عليه موسى عليه السلام من مروءة عالية جعلته يأبى أن يرى مظلوما فلا ينصره، ومحتاجا فلا يعينه، ومن ذلك عندما رأى امرأتين عاجزتين عن سقي غنمهما، قال لهما: ﴿ ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ﴾⁽²⁴⁻²³⁾، وعندما رأى مظلوما يستنصره، ما كان منه إلّا نصره، وقال: ﴿ ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾.

3- تأكيد أنّ هذا القرآن من عند الله، بدليل أنّ هذا القرآن قصّ على النبيّ (ص) وعلى الناس قصصا لا علم لهم بحقيقتها قبل أن يقصّها عليهم لقوله تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ ، ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين ﴾⁽⁴⁴⁾، أي ما كنت يا محمد بالجانب الغربي للوادي في سيناء: أي جبل ناجى موسى ربّه "إذ قضينا إلى موسى الأمر"، أي: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه "وما كنت من الشاهدين" لذلك حتى يقف على حقيقته وتحكيه لقومك ونقصّ عليك خبره من جهة نفسك، فبذلك يتبين أنّه من عند الله سبحانه يوحي منه إلى رسوله².

4- اهتمت السورة اهتماما واضحا ببيان مظاهر قدرة الله عزّ وجلّ في هذا الكون التي نراها في إهلاك الظالمين والمغرورين حتّى ولو ساندتهم جميع قوى الأرض.

والخلاصة أنّ سورة القصص على رأس السور المكيّة التي حضنت المؤمنين على الثبات والصبر، وسأقت لهم من أخبار السابقين، ما يزيدهم إيمانا ويقينا.

(1) التفسير الوسيط لطنطاوي (مقال الكتروني)، مقاصد وأهداف سورة القصص.
 (1) د. محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير من تفسير الإمام الشوكاني المسمّى فتح القدير، الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، مكتبة دار الفيحاء، مكتبة دار السلام، ط5، 1414هـ، 1994م، ص413.

المبحث الثاني: آليات الحجاج في سورتي الكهف و القصص.

تمهيد:

إن الناضر في سورة الكهف و القصص يرى بجلاء أن لكل سورة فيه إيقاعاً موسيقياً متميزاً له وقعه في الأسماء، و هي في تأليف العبارات بتغير الألفاظ و نضمها في نسق خاص فهي مكونة من ألفاظ موحية قد اتسقت في مجملها و استقرت في مكانها و كونت مع زميلاتها آيات تأثر في نفس سامعها بقوة نسجها ،و جمال موسيقاها و قد قدم فيها ما قدم و أخر ما أخر و ذكر ما ذكر وحذف ما حذف، و جاءت في بناء قصصي محكم تستلهم منه القصص المعاصرة في فنيها و جمالها بغية لفت انتباه القارئ و التأثير فيه ، فقد تعددت الآليات الحجاجية في سورتي الكهف و القصص من بلاغية ،و لغوية ،و فلسفية وسنحاول في هذا الفصل أن نصف و نبين أبرزها في كلتا السورتين.

أولاً: الآليات البلاغية.

إذا تأملنا في مفهوم البلاغة عند القدماء لوجدنا أنه ذو أبعاد لا تنحصر في ثنائية التواصل و الجمال بل هو مفهوم متعدد المعاني ، متشعب الأبعاد و ربط محمد العمري معاني البلاغة بثلاثة وظائف أساسية التي تكمن في الوظيفة الإخبارية، و المعرفية والتعليمية أي إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام و التأثير بتقديم الأمر على وجه الاستمالة و جلب القلوب ، أما الوظيفة الجمالية فهي تقوم على إظهار الأمر على وجه الاحتجاج و الاضطرار. و البلاغة في اللغة العربية محصورة في بعدها الأسلوبي وهي تشمل على ثلاثة علوم و هي علم البيان و علم المعاني، و علم البديع.

- البيان: جاء البيان في اللسان ما بيّن له الشيء من دلالة و غيرها و بان الشيء بياناً اتّضح فهو بيّن... و أبنته أنا أي وضّحته و من قوله تعالى : " آيات مبينات " (بكسر الياء

و تشديدها) و من قرأ مبيّنات فالمعنى أن الله تعالى بيّنها ... والتبيين و الإيضاح ¹. فالبيان هو الإيضاح عن المقصود و لكنّه يتم ببلاغة و دقّة، و هذا ما نلاحظه في الحديث الشريف الذي رواه ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال " إن لمن البيان لسحراً و إنّ من الشعر لحكماً". " فالبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ ² و من مظاهر الإعجاز القرآن الكريم أسلوبه البياني اللّغوي.

و قد جاء البيان في سورتي الكهف و القصص متقناً و في أسلوب حجاجي بليغ يقول السكاكي في كتابه مفتاح العلوم، إذ ربط البيان بالدليل لأن البيان و فروعه كالاستعارة و التشبيه بمثابة الحجة أو الدّليل بالنسبة إليه في الاستمالة و الامتناع لذلك قال من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان كأصل التشبيه، و الكناية أو الاستعارة و وقف على كيفية مساقاة لتحصيل المطلوب به أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل. ³

أ-الاستعارة : هي إحدى أبرز صور المجاز و أكثرها قدرة على التأثير و هي بشتى أنواعها بيان و توضيح أو معرفة و رؤية أو تعبير عن الذات، أو ملئ لفراغ اللّغة و عجزها و في كل هذا عون للمخاطب على تحقيق الإقناع، و اعتبر الجرجاني حجاجية الاستعارة قائمة

على مفهوم الإدّعاء فهي ليست حركة في الألفاظ ، إنما هي حركة في المعاني والدلالات و هي ليست بديعاً بل هي طريقة من طرق الإثبات الذي يقوم على الإدّعاء ⁴

(1) ابن منظور لسان العرب. المجلد الثاني مادة (بين)

(2) المرجع نفسه.

(3) السكاكي ، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية ،بيروت، ص 182.

(4) ينظر أحمد أبو زيد الاستعارة عند المتكلمين، مجلة المناظرة ،العدد4 ماي 1991 ص46-47

و قد تفتن إلى أن الطرق التي تسلكها الاستعارة لا نهائية و متشعبة ، و التأثيرات التي تسلكها غير محصورة فهي "أمدّ ميداناً و أشد افتتاناً و أكثر جريانا و أعجب حسنا و إحسانا، وأوسع سعة و أبعد غوراً و أذهب بحدا في الصّناعة ، و غورا من أن يجمع شعبها و شعوبها و لحصر فنونها وضروبها نعم واستقر سحراً ، و يملأ صدرأ و يمتع عقلاً و يؤنس نفساً و يوفر أنسا.¹ أي تؤثر في الجانب الشعري و الجمالي و الفكري، و العقلي و النفسي و الانفعالي، فهي تجمع بين قطبين أساسيين هما العقل و النفس لتحقيق الإقناع.

* نماذج للاستعارة في سورة الكهف:

ورد في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ و تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض و نفخ في الصور فجمعناهم جمعا⁽⁹⁹⁾ ﴾. فكلمة يموج لا تقف عند استعارتها بمعنى الاضطراب بل إنما تصور للخيال، هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاجر كبحر ترى العجب منه ما تراه في البحر الزاجر من حركة و تمّوج و اضطراب. و في قوله تعالى: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً⁽¹⁾ ﴾ هي استعارة لأنّ العوج أن يكون فيها يصح عليه أن ينصاب و يميل و يضطرب و يستقيم، و هذه من صفات الأجسام لا من صفات الكلام ، وصف القرآن أنه قَيِّم لا عوج فيه ذهاباً إلى نفي الاختلاف و التناقض في أوضاعه و مبادئه. في موضع آخر قال جل جلاله: ﴿و يقولون خمسة سادسهم كلهم رجما بالغيب⁽²²⁾ ﴾. لأن الرجم هنا هو القذف بالظن و إنما سمي الظان راجماً لأنه يوجه الظن الى غير جهة او الرّاجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره فتارة تقع يمينا، و تارة تقع شمالاً.

(1) الجرجاني ، اسرار البلاغة ص40

نماذج للاستعارة في سورة القصص:

قال الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ لِآلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا حَرَضًا...﴾ في هذه الآية، لنكون استعملت اللّم على طريقة الاستعارة دون الحقيقة فلم يكن التفاهم له بداعي العداوة و أن ينقلب عليهم حزناً، بل رافة و شفقة عليه. فاستعيرت اللام لترتيب العاقبة تبعاً لاستعارة المعنى¹

و في قوله تعالى: ﴿فَحَمِيتُ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ التعبير يلقي ظل المعنى على المشهد و الحركة و كأن الأنباء عميان لا تصل إليهم، و هم لا يعلمون شيئاً. و فبذلك استعارة تصريحه تبعية فاستعير العمى لعدم الاهتداء، فهم لا يهتدون للأنباء. ثم قُلبَ للمبالغة، فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم. و عبر بقوله تعالى: "عَلَيْهِمْ" و لم يقل عنهم، للدلالة على اختفاء الأنباء عنهم أو لإفادة التحكم بهم، و كأن الأنباء وهب في طريقها إليهم عميت فلم تصلهم²، و في قوله تعالى: ﴿تَمَنَّوْا مَكَانَهُمْ بِالْأَمْسِ﴾ كنى على الزمان بالماضي القريب بلفظ الأمس و قد يذكر الأمس و لا يراد به اليوم الذي قبل يومك و لكن الوقت المستقرب على طريقة الاستعارة³. و في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ في هذه الآية شبه ما قُذِفَ على أم موسى عليه السلام الصبر بربط الشيء جيداً خوفاً من الضياع فاستعار لفظ الربط للصبر. و في قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ هنا شبه حال موسى عليه السلام بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضاً شديداً و يجوز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب الإطلاق، السبب على مسبب بمرتبتين و بأن يكون الأصل سنقويك به ثم نشد عضدك.

(1) تفسير القرطبي 263/13، نقلا عن سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية لبحث تحليلي لنيل شهادة الماجستير اعداد

الطالب محمود عبد الخالق خلة، الجامعة الاسلامية بغزة، فيسطين 1423هـ 2002م. ص 75

(2) المرجع نفسه ص 202.

(3) المرجع نفسه ص 241.

(4) أنظر صفوة التفسير 427/2 . نقلا عن سورة القصص، مرجع سابق.

ب-التشبيه:

جاء في لسان العرب الشَّبه و التشبيه المثل والجمع أشباه وأشبه الشيء، بالشيء: ماثلته...¹.

وفي اصطلاح البلاغيين: عرّف الخطيب القزويني التشبيه بقوله: التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، والمراد بالتشبيه هاهنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد...².

فالتشبيه لا يؤتى به ليكون زينة زخرفية تحسينية، بل ليزيد المعنى وضوحا فيقتنع به المتلقي، وذلك لأن الصورة التشبيهية أو التمثيلية تتعاون قوّة النفس (الفكر والخيال) في فهمها، لذلك كان التشبيه أداة ناجحة في الوصول إلى الهدف، ومن براعة التصوير في سورة الكهف والقصص ورود التشبيه فيها منه:

***في سورة الكهف:** ومثل ذلك كثير في تشبيه حال الدنيا وسرعة تقيّضها وعدم ثباتها على حال ومن جملة الألفاظ التي جعلها القرآن معادلة للحياة الدنيا كلمة الماء، ففي قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض⁽⁴⁵⁾﴾، "قالماء هو المعادل الموضوعي للحياة فانتقلت اللفظة عن طريق التشبيه من حالة إلى حالة، إذ شبه حال الدنيا بالماء فيما يكون من المتاع ثمّ الانقطاع، وكذلك كون الماء إذا جرى في مكان غادره إلى غيره إذ لا يمكن الإمساك به"³، "ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ حال النبات المسقى بالماء وما يضيفه عليه من بهاء وحسن ونضارة كحال الدنيا والاستمتاع بملذّاتها"⁴، فيصوّر الله تعالى زوال الدّنيا ونعيمها وعدم خلودها، كي لا يغترّ بها المغترون والمتمسكون بها، بالماء الذي ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض

(1) ابن منظور ، لسان العرب، ج13، مادة(ش، ب، هـ)، ص622.

(2) بغية الوعاة ، السيوطي، 1/247، تحقيق محمد أبو الفضل بيروت لبنان، نقلا عن د. أحمد هندواي هلال دراسة بلاغية تحليلية، أدوات التشبيه www.kotobarabia.com في لسان العرب لابن منظور.

(3) ينظر، الجمان في تشبيهات القرآن ص91.

(4) ينظر التبيان في تفسير غريب القرآن 81/1، وروح المعاني 10/29، ومعاني القرآن للنحاس 287/3.

فتطيره الرياح، فالدنيا زائلة كزوال النبات والمطر وغيرها من مخلوقات الله في الأرض.

وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ فضربنا على آذانهم سنین عددا ⁽¹¹⁾ ﴾، إن البيان الإلهي يبهّر الأبصار بدقته واختصاره، كيف عبّر الله عن نوم أهل الكهف بالضرب على الآذان، فقد شبه إنامتهم الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان، كما تضرب الخيمة على السكان، كلّ هذا ليبين لنا أنّ نومتهم كانت ثقيلة وهذا يلزم منه عدم السمع.

وقوله تعالى: ﴿ إِنّ أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ⁽²⁹⁾ ﴾، ننظر في هذا المشهد المروع، مشهد النار وهي تتأجج وتتصوّر جوعا في هيئة السرداق وهي تحيط بالظالمين وكأنّها المنزل، وإنّما شبه ربنا دار استقرارهم في الآخرة بالسرداق تهكما واستهزاء بهم لأنهم لا يستحقون أكثر من الاستخفاف بعقولهم، ولذلك وصف النار بالسرداق الذي يكون في بيوت أهل الترف للإمعان في استصغارهم والاستهزاء بهم ¹.

وقوله تعالى: ﴿ وإن يستغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾، يعني أن يستغيثوا عن حرّ النار بماء كالمهل، هو كل ما أذيب بالنار من معادن الأرض من حديد ورصاص ونحاس، وقيل المهل عكر الزيت يشوي الوجوه، لحرارته وكان في هذه الآية تنبيه لمن يؤثر المناصب والمرافق وهوى النفوس من الأشرية ونحوها على طاعة الله ².

وفي موضع آخر يقول جلّ ثناؤه: ﴿ اللّذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ⁽¹⁰¹⁾ ﴾، هل كانت الأعين في غطاء حقيقي ففقدت بريق بصرها؟ هذا وصف لما يلزم من تصرفاتهم فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون، وتعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، فأصبحوا أشبه بمن كانت عينه في غطاء وحجاب ³.

(1) سمير الأرناؤوط، قيسات من روائع البيان – سورة الكهف/ ملتقى أهل التفسير، 1425هـ، 2011م.

(2) د. محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير، مرجع سابق ص

(3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*التشبيه في سورة القصص:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَن أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ⁽³¹⁾ 》， لقد شَبَّهت العصا بالثعبان والحيّة والجَانّ، إذ أنّ العصا كالحيّة في الضخامة وكالثعبان في الخفة والنشاط وكالجَانّ وهو نوع من الأفاعي أبيض أي صارت مثل الجَانّ في سرعة حركتها وحجمها، وفيما تثيره من الرعب والفرع، (فولى مدبرا) أي منهزما مذعورا و(لم يعقب) أي لم يرجع، فقال: أقبل ولا تخف إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ.

وذكر في سورة القصص التشبيه بالأداة (كأنّها) وذكر التشبيه (بالجانّ) وقد قدم تفسير هذا في سورتي النمل وطه.

ج-الكناية:

تعدّ الكناية من وسائل الحجاج يقول الجرجاني: "أمّا الكناية فإنّ السبب في أن كان للإثبات بها مزيّة، لا تكون للتصريح أنّ كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكدّ وأبلغ في الدعوى من أن تجيء فتنبّتها هكذا ساذجا غفلا، وذلك أنك لا تدعي، شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التطور والغلط¹، وهي أيضا من وسائل التفنن في القول والإبداع في إثبات المعنى والاحتجاج له، "المراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"²، فالكناية أبلغ من الإفصاح، وتقوم الكناية في القرآن الكريم بدور بلاغي وأسلوبى وتؤدي دورها ونصيبها كاملا في أداء

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص23.

(2) المرجع نفسه ص21

المعاني، فهي حيناً راسمة مصورة موجبة وحين آخر مؤدية مهذبة، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل، ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما تؤديه الكناية، في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية¹.

نماذج للكناية في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، فالندم شعور نفسي يصعب التعبير عنه غير أنه يكون أقوى أثراً وأسرع إدراكاً، إذا نقل إلى صورة حسية يتدفق فيها ماء الحياة، وهي كناية عن صفة الندم فإذا رأيت إنساناً يقلب كفَّيه في اضطراب وحيرة... أدركت مدى ما يعانيه من الندم والحسرة مكثفياً بذلك من كلِّ بيان².

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾⁽³⁴⁾، أي لصاحب الجنتين، وهي كناية عن المال لقول ابن عباس في تفسيره للآية: "أي مال كثير".

نماذج للكناية في سورة القصص:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...﴾⁽¹⁰⁾، فهي كناية عن الحزن، إذ أصبح فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر فارغاً من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى³، إذ لهذه الكناية دور مهم في توضيح المعنى وتأكيد (الحزن الشديد).

ويقول تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾⁽⁷⁹⁾، أي خرج قارون في زينة انبهر لها من رآها (يخبرنا الله عن فخر قارون) وهي كناية عن التكبر والاعتزاز بالسلطة والمال.

(1) رابع دوب، البلاغة عند المفسرين، حتى نهاية القرن الرابع للهجري، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1999، ص335.

(2) الزمخشري (غير مؤرخ)، ج2، ص269.

(3) ابن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، ص388.

د- القصص القرآني:

- القصة:

1- لغة: جاء في لسان العرب: " يقال : قصصت الشيء ، إذا تتبعته أثره شيئاً بعد

شيء ، و منه قوله تعالى : و قالت لأخته قصيه ، أي اتبعي أثره ".¹

2- القصة في القرآن الكريم:

القصة في القرآن الكريم رواية حقيقية صادقة متفاوتة ، و هي تصوير فني من الأشخاص و الأحداث و الحوادث، و تصاوير الحرب بين الخير و الشر، بيننا الله تعالى لأهداف معينة بأساليب منفردة، حتى يتبعها المخاطب، فلذلك سماها القصة، و لها أسلوب، و طرح كالقصص الفنية البشرية.²

3- خصائص القصة القرآنية:

يمثل القصص القرآنية آلية حجاجية، فقد ساقه الله سبحانه و تعالى على الرسول محمد (ص) لتسليته و ليثبت به فؤاده، و ليواجه به قوما طالما جابهوا الدعوة المحمدية، فإنك تجد القصص القرآني كله مملوء بالحجج القاطعة التي تلجم كل عاص متكبر و لا تكاد تمر بقصة إلا وجدت تحتها حجة بالتلويح و التصريح ذلك بأن القرآن ليس بكتاب قصص، و إنما هو كتاب دعوة و تشريع الغاية من قصصه التأثير في الناس و إقناعهم، و يمتاز أسلوبها بالمحاورة الهادفة و الأسلوب المقنع وهذا هو جوهر الحجاج، فهي تعودنا على المحاورة الجادة و أساليب الإقناع التي يجب ان يلتزمها الداعية (بالأسلوب المنطقي و الأدلة المكشوفة و المقدمات الموصلة إلى النتائج المرجوة ليكون لكلامهم شيء من الاستجابة و لدعواهم آثار في القلوب.

(1) ابن منصور، لسان العرب، 1992م، (مادة قصص).

(2) مقال الكتروني، دراسة التكرار في قصة موسى و فرعون، التراث الأدبي السنة الثانية، العدد الخامس، 1388 ، www.sid-ir

كما تتميز بالدقة في التصوير و الواقعية و الصدق، فالغاية الأولى من قصص القرآن الكريم هي تأملها و أخذ العبرة منها و تصحيح العقائد و الرد على شبهات المعارضين و المنكرين، و إثبات صدق التوحيد و الرسالة.

و تعرض القصص في القرآن الكريم على أساليب مختلفة منفردة:

* أسلوب القصص في سورة الكهف:

تقديم تصوير موجز في مقدمة القصة ثم تروى من أولها إلى نهايتها بالتفصيل، [كقصة أصحاب الكهف] في الآية 9-12 من السورة، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرِّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى بِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. ثم تحكي بالتفصيل، و تبدأ هكذا في الآية 13 ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاَهُمْ هُدًى﴾.¹

-أسلوب القصص في سورة القصص:

وقد سميت كما رأينا سابقا بسورة "القصص"، لأنها تحمل قصة موسى عليه السلام (من ولادته إلى حين رسالته)، التي بلغت نسبة تواترها في النص القرآني قرابة الستين بالمائة، كانت لغاية حجاجية، وذلك لأن النبيين الكريمين لقيا نفس المواجهة من القوم الذين بعثا إليهم في دعوتهم، ففسوق قصص سيدنا موسى عليه السلام مع قومه تكون حجة على أمة محمد (ص).

وتميّزت سورة القصص بالواقعية في رواية القصة في قوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾²، وتعتبر قصة موسى أطول قصص الأنبياء ويعتقد بعض المفسرين أنّ حرف الجرّ (من) للتبعية، يعني نتلوا عليك بعض أنباء موسى، وفرعون يزين بالحقيقة لقوم يؤمنون بآياتنا، فالقصة في القرآن أنباء صادقة وحقيقية وقعت في

(1) المرجع السابق.

(2) سورة القصص الآية: 3.

زمن بعينه، فاستخدم فيها سحر البيان واختيار اللغة والتساوير الحيّة إزاء التخيل يسبح فيه الناظرون، فجمال النظم القرآني أنه ينقل المشاهد بجميع الأبعاد وبأمانة وصدق، ولكن على دفعات ولقطات، وليس في معرض واحد، حتى لا تتراكم وتتراكم، وتأتي مختلفة في الشكل والحجم والأسلوب والبيان والعرض، واستخدام الألفاظ وفواصل الآيات¹، وقصة موسى وفرعون التي تتناسب مع كل سورة تروي فيها جوها، وهي تحكى على أساليب متنوعة، حتى لا يمل المخاطب من تكرارها، كما أنّ السورة القرآنية منها ما هي مكّي وما هو مدني، وكل سورة لها موضوعها ووحدتها الخاصة².

هـ - التصوير:

للتصور في القرآن الكريم جمالياته الفنيّة التي تؤثر في العقل و القلب معاً فهي تخاطب الذهن في أرقى عملياته الفكرية و الإدراكية، و تخترق كوامن الوجدان فترققه ، حتى يصبح صافيا حيّا و نابضا متألقا، و من ثمّ يكون المنطق التأثيري آخذا بالنفس البشرية، ممتلكا لجوانبه و أبعاده، والتصوير ملمح أساسي في النصّ القرآني يتضافر في تحقيقه اللفظ الجزل برنينه الصوتي و الجملة بتراكيبها المتنوعة و بنغماتها الداخلية. و هو إحدى الطرق التي سلكها القرآن الكريم في جدله مع الخصوم، المعاندين و المكابرين و استعمال كلّ الأدوات التي توضح فكرة و تقوي دليلا، و يمكن القول أنّ: " الصورة ليست مجرد قدرة على تنسيق لفظي بل إن كل إحياء فيها يعمل على بثّ إعطاء يتفاعل في النفس"³. فكانت طريقة القرآن الكريم كما قال السيد قطب: هي الطريقة العامّة طريقة التصوير و التشخيص، و التجسيم.... كان هذا هو المنطق الوجداني الذي جاء به القرآن الكريم و ناضل و كسب المعركة في النهاية، فبلغ الغاية بمادته و طريقته، و جمع الغرض الفني و الدّيني

(1) مقال الكتروني، دراسة التكرار في قصة موسى وفرعون، التراث الادبي السنة الثانية، ع1383، 5

(2) المرجع نفسه.

(3) عيد رجا: دراسة في لغة الشعر، منشأة المعارف، ص. 44

من أقرب طريق و من أرفع طريق سلك القرآن غير الصور النفسية و المعنوية و غير القصص الكثيرة و غيرها من مشاهد القيامة و صور النعيم و العذاب.¹

-التصوير في سورة الكهف:

إنّ المناظر في سورة الكهف، يلمح فيها فنية التصوير القصصي الذي يعبر بالصورة المحسنة و عن الحادث المحسوس و المشهد المنظور و من ذلك:

صورة لمشهد من مشاهد يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الآية 47 إذا يؤدي اللفظ (حَشَرْنَاَهُمْ) هول الموقف من خلال حشد الناس في مكان ضيق محدود في تزامم و إطباق و تراصٍ دون إغفال أحد، و هو الحشر إلى الجنة أو النار.²

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾⁽²⁾، **ما كُتِبَ فِي أَبَدٍ**⁽³⁾ إن المكث هو الاستقرار في المكان، وهل يمكث الإنسان في الأجر الحسن؟ هذا من براعة التصوير القرآني، فجعل الأجر الحسن بما فيه من المِلذَّات والثواب والنَّعيم كالوعاء الذي استقرَّ فيه المؤمنون، والأجر الحسن يحيط به من كلِّ جانب لا يفارقهم طرفة عين، فكلَّ جزء منهم يعمّه الثواب والنَّعيم.

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾⁽⁵⁾، كلمة "كبرت" تصوّر هذه الكلمة عظم الوزر الذي ينطقون به فهم يتكلّمون بكلام، هذا الكلام يكبر ويكبر وهو يخرج من فيهم لما فيه من الإسفاف والشفاعة³ و نلاحظ التصوير في قصّة صاحب الجنّتين المغرور بثرائه مع صاحبه الفقير المؤمن لقوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمَا مِثْلًا رَجُلَيْنِ

(1) السّيد قطبة: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق(د ت)، ص11.

(2) أنظر محمد السفاريني: أهوال يوم القيامة و علاماتها الكبرى، مؤسسة الكتب و الثقافة، ط7، 1993، ص123

(1) حينظر قياسات روائع البيان، سورة الكهف، 10/02/1011-07/03/1432

جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب...عقبا⁽³²⁻⁴⁴⁾، إنّه تصوير الجنتين وبيان لمحتوياتها من أصناف العنب، محفوفة بنخل.

يصوّر اللفظ (محفوفة) النخل محيطة بتلك الأعناب وكأنّها ترعاها وتحتضنها ويضيف إلى هذا المشهد الزّاهي الألوان، هندسة زراعية، فبين الجنتين فاصل من جنس الجنّة، زرع بهيج، وكلتا الجنتين تثمر وتعطي غلّتها غير منقوصة، عبّر عن هذا المعنى في قوله تعالى: "كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا"، وكأنّها من تحبس ثمارها عن الظهور، تكون مثل الظالم الذي ينتقص من حقّ غيره، ويضاف إلى هذه الصورة عنصر الحياة "وفجّرنا خلالهما نهرا"، نبع يتفجّر تتوالى دفقاته قوّة، صوّر هذا المعنى اللفظ (فجّرنا) فيروي الجنتين ويضفي عليها جمالا وتكتمل الصورة، وهذا هو المشهد الأول، وأمّا المشهد الثاني فيتمثّل في الحوار بين الرجلين ﴿وكان له ثمر وقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعزّ منك نفرا﴾⁽³⁴⁾، بحيث تبين هذه الصورة طبيعة العلاقة بين الرجلين فهما أصحاب، ثم يستعرض الرجل الثري ما لديه من ثروة غرورا وتعاليا على الفقير "أنا أكثر منك مالا وأعزّ نفرا"، وهو ينكر قيام الساعة، وتغير الأحوال في الدنيا، ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا﴾⁽³⁷⁾، يحاوره أي لا يخاصمه، فيستفهم وينكر عليه الكفر، ثمّ ينبهه إلى أصل نشأته وإيجاده بعد العدم كدليل على البعث ثمّ ذكره بكونه رجلا ولم يخلقه الله أنثى¹، ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا* ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا"، بحيث ينتهي هذا المشهد بصورة الرّجل البائس وسط الخراب﴾².

⁽¹⁾ أبو حيان: التفسير الكبير المسمّى بالبحر المحيط ج6، ص123-125.

⁽²⁾ انظر سيّد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص56.

***نماذج للتصوير في سورة القصص:**

إنّ الجملة تتكون من ألفاظ وكلمات تنقل لك صورة و فكرة، وهذا أمر واضح جليّ ولكن أن تؤدي الكلمة صورة شاخصة فهي تحتاج إلى قوة بيان وبلاغة لقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾، فكلمة "يتربّص" ترسم في هذا الموضع صورة فنية وهي هيئة الحذر المتلفت والقلق المتوجس خيفة المتوقع للشر في كل لحظة، وتضعك أمام حركة الاقتفاء المتخيلة بالجسم، فتعالى بيانك يا ربّاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (41-42).

تأمل هذا المشهد الذي يثير في نفس السامع العجب والغرابة، فالآية تخبرنا عن فرعون وكبراء قومه، الذين كانوا في الدنيا أئمة قومهم في الضلال والغرابة إمامتهم مستمرة في اليوم الآخر "أئمة يدعون إلى النار" أغرب الدعوات أن يقول الإمام لتابعه "هيا بنا إلى النار".

ثانياً: لآليات اللغوية.**1- الاستفهام:**

هو أسلوب لغوي من أساليب السؤال و يهدف إلى طلب الإفهام تصورا، و تصديقاً و له دور كبير في العملية الحجاجية نظرا لما يعمل به من جلب القارئ، أو المستمع في عملية الاستدلال و تعد بعض التواترات الاستفهامية في بعض السور القرآنية دليلا على منحى الحجاج الذي سلكه القرآن في نشر الرسالة و قد ضمه النحويون في الإنشاء الطلبي وقسموه إلى نوعين:

أ- **الاستفهام الحقيقي:** و هو الذي ورد على أصل معناه و هو طلب الفهم و معرفة المجهول.

ب- الاستفهام المجازي: يعلم فيه صاحبه جوابه ، ولكنه يقصد معنى آخر يفهم من السياق بعد التأمل في النص و أطلق عليه بعض النحويون الاستخبار، و هذا النوع استخدمه الخطاب القرآني، و عول عليه في العملية الحجاجية لأنه يلعب دوراً أساسياً في الإقناع بالحجة.

ج- أدوات الاستفهام:

- أدوات الاستفهام عن نسبة : هما الهمزة و هل، شرط أن تكون الجملة معهما في نظام المألوف دون تقديم أو تأخير.

- أدوات الاستفهام عن المفرد: هي الظروف متى، أين ،آتى، أيان و الأسماء: كم، كيف، من، ما، أي.

* نماذج الاستفهام في سورة الكهف: نجد في قوله تعالى: ﴿ أَكْفَرْت بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ الاستفهام هنا مستعمل في التعجب و الإنكار لأن الصاحب كان يعلم أنّ صاحبه مشرك بدليل قوله تعالى: ﴿ وَ لَا أَشْرَكَ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ نجد هنا استفهام تقرير و تحريض باللوم على عدم الوفاء بما ألتزم. وذكر رضي الدين الأسترباذي أنه (إذا دخلت همزة الاستفهام على لم) و (لما) فهي للاستفهام على سبيل التقرير بمعنى إلقاء المخاطب إلى الإقرار بأمر يعرفه¹ ، أمّا في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رَشْدًا ﴾ سؤال تلطف على وجه الإلزام و الإجبار لأن هل حرف موضوع لطلب التصديق الإيجابي دون التصور و دون التصديق السلبي فيمتنع² فيما يخص الأسماء فنجد "من" وهي اسم استفهام تستعمل لسؤال عن كل ما يعمل، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ من استفهامية وهو إنكار أي لا أظلم من افتري و المعنى انه أظلم من غيره وهو استفهام يراد به النفي وإذا ضُمت الاستفهام معنى النفي صار فيه زيادة فائدة. أما في قوله تعالى: ﴿ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾⁽⁴⁹⁾ (ما) اسم استفهام مبنى في محل رفع مبتدأ و

الأم للاختصاص و اختلف المفسرون في معنى الاستفهام في هذه الآية، فهناك من قال للتفجيع أو معناه التفخيم أو للتعجب ¹.

ورد الاستفهام ب (كيف) في قوله عز وجل: ﴿ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ ﴾⁶⁸ (كيف) للاستعمال الإنكاري في معنى النفي، أو أنت لا تصبر على ما لم تحط به خبراً والخبر (بضم الخاء و سكون الباء) يعني العلم. ²

في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾¹⁹ كم هنا استفهامية مبنية (أي) و قد جاءت ثلاثة مرات في سورة الكهف منها قوله تعالى: ﴿ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾⁷ أي استفهامية مرفوعة بالابتداء. (أحسن) خبرها و معنى الآية لنختبرن هذا أحسن عملاً أم ذاك. ³

* نماذج للاستفهام في سورة القصص:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾⁽⁷¹⁾ أي أخبروني لو كان الدهر الذي يعيشون فيه و طلب مالا بدلهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم و المشارب و الملابس (من اله غير الله). أي هل لكم اله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء أي بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه و تصلح به ثماركم و تنمو عنده زراعتكم و تعيش به دوابكم (أفلا تسمعون) و جاءت الهمزة في بداية الآية للاستفهام و كذلك (من) اسم استفهام و الغرض منه في هذه الآية هو الامتتان. و قات تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾⁽⁵⁷⁾ ورد الاستفهام في هذه الآية لأن إنكارهم الأمن اقتضى توبيخاً على هذه الحالة التي تلبسوا بها و هي حالة المنكر للأمن الذي كانوا يعيشون فيه و هو الحرم الذي مكّنهم الله داخله و غرضه التقرير و يقر الله أن اعتذار الكفار كذب و باطل.

(1) المرجع نفسه ص 183

(2) المرجع نفسه ص 184

(3) المرجع نفسه ص 185

و في الآية ﴿ قال هذا فراق بيني و بينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرره موسى عليه السلام و كرّر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنّما وقع في ثماني حجج و (أيما) استفهام منصوب (قضيت) و (الأجلين) مخفوض بإضافة (أي) و (ما) صلة للتأكيد و فيه معنى الشرط و جوابه (فلا عدوان). و قال تعالى: ﴿ و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ (8) كم خنا استفهامية جاءت تذكيراً و تمهيداً للكفار و غرضه الوعيد.

و خلاصة القول إنّ استخدام الاستفهام قد يهدف أحياناً إلى حمل من وجه إليه الاستفهام على إبداء موافقته. و من القضايا المعروضة للحوار أو الجدل و التعويل على هذا الأسلوب أمر محبب لدى أهل الحجاج نظراً لما يعمل به من جلب القارئ أو المستمع و إدماجه في الخطاب. و قد لاحظنا أن الاستفهام في سورتي الكهف و القصص كان حاضراً بكثرة و هذا يعود إلى مضمونهما الذي يحتوي على جزء كبير من القصص القرآني، بحيث جاء القصص بأساليب تقريرية و إنشائية تماشياً مع هدف و أغراض السورتين المتمثل في الدعوة إلى إثبات العقيدة و الثقة بحكمة الله و تحقيق وعده.

2- الشرط:

يقوم الشرط في اللغة العربية على أمرين، الشرط و جوابه فيعد أسلوب الشرط سمة للنص الحجاجي إذ يسهم في بناء الاستدلال وفق الوجهة التي يرغب فيها المحاجج و يقود الخصم إلى المشاركة في صوغ جوابه بدعم الأطروحة المقترحة بطريقة حتمية، و ذلك أن أسلوب الشرط يقوم على التلازم الضروري بين فعل الشرط و جوابه ما دام فعل الشرط ينزل منزلة المسلم بها.

* نماذج للشرط في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿من يهدي الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ (من يهد) من: شرطية و الدليل على أنها شرطية، حذف الياء من (يهتدي) و الجواب (فهو

المهتد) حذفت الياء تخفيفاً. و الجملة الثانية (من يضل) جواب شرط و جملة فعلية منفية ب (لن). و في موضع آخر " و أما السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر " أما هنا أداة شرط غير جازمة، تفيد تفصيل الجمل و توكيدها. و تطلب جواباً لنيايتها عن أداة الشرط (مهما) و فعتها، و تلزم الفاء جوابها و لا يليها إلا الاسم. و في قوله عزّ وجل: " فأما من تاب و آمن و عمل صالحاً فعسى يكون من المفلحين " هنا أما حرف شرط و تفضيل غير جازم و الفاء استئناف رابطة لجواب الشرط. و قوله تعالى: " قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين " تأمل هذا التحدي السافر و التعجيز القاهر الذي يخطب به القرآن المعاندين المشركين فقد طالبهم بالإتيان بكتاب هو أهدى من القرآن ليثبت قوتهم بل ليكن كتاباً يدين به محمد (ص) و يؤمن به، و في هذا مبالغة في التعجيز ليقعوا في الهزيمة إن لم يفعلوا ذلك ، و هنا الضعف و العجب تتاسب الإتيان بحرف شرط (إن) الدال على الشك في قوله في ختام التحدي ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

3- التوكيد:

تعريفه: و سمية التأكيد، و أما الإسم قبله يسمى المؤكد، و يجب أن يكون معرفة، و التوكيد تابع للمؤكد. يذكر لتقوية و تأكيد حكمه و يأتي في الكلام بالتوكيد اللفظي أو المعنوي.

يلجأ إليه لتأكيد الحجج و تثبيتها في ذهن السامع ، و يعدّ من أساليب البناء اللغوي و البياني التي استعملها القرآن في مجادلاته، لإزالة الشبهات و الشكوك في ذهن المنكرين، و هو دقيق المأخذ و كثير الفوائد.

* نماذج للتوكيد في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾⁽²⁷⁾ و تقع إن في هذه الآية لتوكيد المعنى و هي حرف توكيد مشبه بالفعل و بجانب ذلك أكدت هذه الآية ب (لن) و هي حرف نصب و نفي و استقبال. أكد الخضر في هذه الآية أن موسى لن يطيق أن يصبر على ما

يراه من علمه، لأن موسى لا يوافق ذلك. و في قوله عزّ و جل: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾⁽²⁰⁾ صدرت الجملة بأن الدّالة على التوكيد و إن كان المسند هنا جملة شرطية و معلوم أنّ الشرط أ أمر احتمالي و ليس قطعياً، لكن حدوثه حتماً بأنهم سيفعلون ذلك. قد جاء ضمير الفصل في مواضع كثيرة في القرآن الكريم و قد حدّد فيها ما يؤديه من دور كعنصر لغوي مفيد للتوكيد و التقرير مثل ﴿إِنْ تَرَنَّ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَ وَلَدًا﴾⁽³⁹⁾

نماذج للتوكيد في سورة القصص:

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حين أكد الضمير المتصل (إني) بالضمير المنفصل (أنا) و هو توكيد الخبر، و قوله تعالى ﴿... وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادَّاهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾⁽⁷⁾ أي لا تخافي و لا تحزني لفراقه، سنرده إليك عن قريب فيه تأكيد من الله عزّ وجلّ على تحقيق وعده لأم موسى.

4- الإيجاز:

أشار إليه روبرول حين قال "الإيجاز هام من زاوية تعنى بالحجاج لأنه يشكل سلاحاً نواجه به العدوان القاتلين النسيان و عدم الانتباه فالتطويل في الوصف و التصوير، و الإسهاب في الشرح و التعليل ينتهيان بالملتقى إلى الملل فتضعف قدرته على الانتباه و لا يحتفظ من القول إلاّ بأقله و حتى هذا القليل مُعرض للنسيان ببُعدِه عن الإيجاز."

-أنواع الإيجاز :

أ- إيجاز القصر (بكسر القاف و فتح الصاد): و هو أن الألفاظ القليلة تؤدي معان كثيرة من غير حذف.

ب- إيجاز الحذف: الأبلغ من الذكر، و يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تدل على المحذوف.

*نماذج للإيجاز في سورة الكهف:

نلاحظ بوضوح إيراد الإيجاز في قصة موسى و الخضر، حين اعترض موسى عليه السلام على الخضر بشأن إقامته للجدار المائل قرية أبي أهلها أن يضيفوهما، قال له الخضر ﴿هذا فراق بيني و بينك...﴾ (87) ﴿إن لم يلتزم موسى عليه السلام بشروط المصاحبة، فاقتضى الحال يحصر الكلام و يكون موجزاً جداً و بعد أن أبان التأويل لموسى الحكيم للأحداث التي أجراها بأمر الله أو إذنه قال له: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (82) ﴿فأوجع بالحذف في كلمة (تَسْطِعْ) بحذف التاء بعد السين.

فالإيجاز من البلاغة (خير الكلام ما قلّ و دلّ) و في ذكر الضمير ما يغني عن إعادة اللفظ في قوله تعالى ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا قَرْيَةً اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفَهُمَا﴾ فكان الحذف في قوله تعالى "اسْتَطَعَا أَهْلُهَا" و لم يقل "أتيا أهل قرية استطعاهم" أثر القرآن الكريم إظهار لفظ (أهلها) دون الإتيان بضميرهم لزيادة التصريح تشبيها بهم في لومهم. و في قوله ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (97) ﴿في هذه الآية قال "اسْتَطَاعُوا" في الأول و "استطاعوا" فحذف التاء في الأول، كون الاستطاعة في الفعلين متعلقة بالسّد الذي صنعه ذو القرنين ليمنع يأجوج و مأجوج، و معنى يظهروه هو يتسلفوه و معنى نقبا هو نقضه أو ثقبه بالحفر، و بما أن التسلق يحتاج خفة و رشاقة . جاء تخفيف بناء الفعل كأنه يشارك في تحمل بعض أعماله، أما (استطاعوا) أثبت التاء لأن ثقب الجدار يحتاج إلى معدات ثقيلة، فحذف من الأول و قصر في الثاني ليجانس النطق الزمني الذي يتطلبه كل حدث.

*نماذج للإيجاز في سورة القصص:

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ⁽¹²⁾ ﴾ احتاج الاستفهام هنا إلى جواب منتظم لما بعده من رده إلى أمه و الجواب فقالوا نعم فدلهم على امرأة ، فجيء بها و هي أمُّه و لم يعلموا بمكانها فأرضعته و هذه الجملة الثانية قوله تعالى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ⁽¹³⁾ ﴾ تدل على محذوف لأن رده إلى أمه لم يكن إلا بعد ردّ الجواب على أخته و دلالاته إياهم على امرأة ترضعه.

و قوله تعالى ﴿ و لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّهُ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبَهُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يَصْدَرَ الرَّعَاءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾. و في الآية الكريمة حذف المفعول في أربعة مواضع و هي إن المعنى (وجد عليه امه من الناس يسقون أغنامهم و مواشيهم و امرأتين تذودان عنهما و قالتا لا نسقي غنمكما حتى فسقى غنمهما ... و ما ذلك إلا أن غرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى الدعاء ... فأما ما كان المُسْقَى غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج من الغرض و موهم خلفه و كان في حذف المفعول في هذا النحو.

والروعة و الحسن ما وجدت إلا لأن في حذفه و ترك ذكره فائدة جليلة و الغرض لا يصح إلا عن تركه. ² و في موضع آخر قال تعالى ﴿ و إِذْ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ حذف الفعل اذكروا الناصب ل إذ العائد على الفعل فكان هذا الحذف تنبيه واضح للقارئ لما بين المقاطع من ترابط حتى لا يظن مع بداية قراءة هذا المقطع أنه منفصل على سابقه , و قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ فحذف الفعل (فَضْرَبَهُ فانفجرت اثنتا...) لدلالة الكلام عليه و أمثلة الحذف و الإيجاز في سورة القصص كثير.

(1) سمير الأناؤوط، قبسات من روائع البيان، سورة الكهف 1432هـ

(2) محمد الأمين خويلد، دلائل الإعجاز ومجلة الآداب واللغات، 2005، ص 131، 132

اكتفينا بذكر بعضها لنستبدل على الحذف في السورة .

و من خلال دراستنا للحذف في سورتي الكهف و القصص تبين لنا أنّ الميل للحذف على السياق اللغوي للأحداث القصصية أو الاكتفاء بالإشارة لهذه الأحداث لورودها في آيات قصصية أخرى من القرآن الكريم، و هذا كلّه يكشف أنّ دور الحذف ليس فقط في تماسك آيات السورة الواحدة حيث إثارة الذهن في البحث عن التقدير المحذوف، و دليل هو مرجعيته، و من ثمّ اكتمال أحداث القصة القرآنية.

5- التكرار:

هو الإعادة بالمرادف لتعزيز الحجة بحيث يرى عدد من علماء، الرسالة من العوامل التي تساعد على الإقناع ذلك أنّ التكرار يؤدي إلى تذكير الملتقى باستمرار بالهدف من الرسالة، و حجاج التكرار يتمثل في توكيد الحمولة الدلالية لمضاعفة طاقة إقناعها و كما أنّه وسيلة تنبيهية تسهل تلقي الخطاب و فهمه ، و قد تم الإقرار بالتكرار الذي وسم القصص القرآني بصفة عامة ز و قصص سيدنا موسى عليه السلام بصفة خاصة، فالتكرار إذا جاء فإنّما يأتي لتقرير المعنى مع زيادة تقرير الحادثة ،فلا طريقة لتحفيظ العلوم إلّا ترديد ما يراد حفظه. كما أنّ الله سبحانه و تعالى كلما ذكر قصة أضاف إليها شيئاً و معنى جديد لفائدة خلت منها المواضيع الأخرى و لترسيخ العقيدة و المفاهيم الصحيحة.

*نماذج للتكرار في سورة الكهف:

التكرار في سورة الكهف وافر تعددت أنواعه و مواضيع استخدامه و أغراضه التي ينطوي عليها كالاتزام حرف(روى) موحد و هو حرف الراء في معظم الفواصل، إلى تكرار صيغة (أما. ف) إلى التزام جملة (لقد جئت شيئاً) و إلى التزام معظم آية (إنّك لن تستطيع معي صبرا) و تنوعت مواضيع استعماله (في بدايات الآيات. و نهايتها و في تضاعيفها و أوساطها). أما في تضاعيف الآيات نجد (حَرَقَهَا، أَخْرَقْنَهَا) و (قَتَلْتَهُ، أَقْتَلْتَهُ) و (نفساً بغير

نفس) و (عبداً، عبادنا) و (تُعَلِّمُنِي، عَلِّمْتَ) و (بيني و بينك). كما نجد تكرار لفظ القول (قال) في قصة المؤمن و الكافر في خمسة مواضع مثل (فقال لصاحبه و هو يحاوره) . و (قال ما أضُّنُّ ...). و في قصة سيدنا موسى عليه السلام في ثمانية موضعاً مثل (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) شكلت اتساقاً داخلياً بين آيات القصة.

و في قصة ذي القرنين فقد تكرر لفظ القول تسع مرات فحدث ترابط داخل الآيات كونها أيضاً ذات طابع حوارى قصصي مثل " انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفزع عليه قطراً " و تكرر لفظ الجلالة عدّة مرّات، و لفظ الكهف. الفتية... و عدة ألفاظ أخرى. و قوله تعالى في قصة ذي القرنين " فَاتَّبَعَ سَبَبًا " و " ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا " و في الآية 92 مما حقق تماسك واتساق ثلاث آيات غير متجاورات.

*نماذج للتكرار في سورة القصص:

نجد التكرار في سورة القصص في التزام حرف رويّ موحّد و هو حرف النون في معظم الفواصل، و أيضاً تكرار صيغة (لَمَّا، مَا، أَمَّا...). كما نجد تكرار لفظ القول (قال، قالت، قل، قيل، يقول) و في الآيات 14 و 15 تكرار للفظ (شيئته و عدوه) و في تضاعيف الآيات نجد (فاغفر لي، فغفر له)، (نسقي، فسقى)، (استأجره ، استأجرت)، (بيني و بينك)، (قتلت، يقتلون)، (تهدي، يهدي)، (أغويناه، أغوينا)، (و يكأته، و يكأن) و أكثر الكلمات تكراراً في سورة القصص كلمة "موسى" لأن سورة تحكي قصة موسى من ولادته إلى رسالته ، و تليها كلمة "فرعون" لأنها تحكي قصة موسى و فرعون.

و خلاصة القول أنّ للتكرار وظيفة تأكّدت من خلال التحليل النصي لسورتي الكهف و القصص كونها حققت تماسكاً دلالياً و شكلياً و داخلياً و خارجياً على مستوى الوحدة و على مستوى آيات مختلفة في السورة ، بل تعداه إلى السور العامة المكية على وجه الخصوص التي تؤكد قضية العقيدة بالتكرار في القصّة القرآنية ليس من التكرار الآلي بالفن

الذي يعيبه النقاد، إنما هو تصرف بارع في صيغة التعبير و إعادة الكلام في موضع واحد من التنويع و التجديد من بلاغة القرآن و إعجازه.

ثالثا: الآليات الفلسفية: من بين الآليات الفلسفية الاصولية او المنطقية الواردة في سورتي "الكهف والقصص" نجد:

1- **القياس:** آلية منطقية حجاجيه ، يمكن للمحاج ان يعتمد عليها في اقناع المعارض عن كلامه او عليه فان (الاستدلال القياسي يحتوي الآليات التي يتوالد بها كل خطاب طبيعي، وتتكاثر بها أجزاءه، وتتماسك فيما بينها)¹ نفهم من هذا أن القياس يؤثر به كوسيلة حجاجيه في الخطاب ليكون أكثر نجاعة و اقناعا علما أن هذا القياس انواع (القياس الاضماري، قياس الخلف، قياس التمثيل).

أ- **القياس الاضماري (المضمّر):** وهو قياس حذفته منه احدى المقدمات طبقا لمقتضى الحال و المقام بها، فهي موجودة في ذهن المخاطب محذوفة في كلامه، وقد عبر ابن سينا عن القياس المضمّر في القرآن الكريم بقوله (ان الناظر في القرآن الكريم يرى اكثرها قد حذفته فيه احدى المقدمات)²

ومن امثلة ذلك ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ ما اشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ (50-51) ﴿ فالتحقيق في معنى هذه الآية الكريمة ان الله تعالى يقول ما اشهدت ابليس وجنوده ،اي ما احضرتهم خلق السماوات و الارض، فاستعين بهم عن خلقها ولا خلق انفسهم اي :ما اشهدت بعضهم خلق بعض فاستعين به على خلقه بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير فكيف تصرفون لهم حقي و تتخذونهم اولياء من دوني و انا خالق كل شيء، وهنا يتمثل الاضمار . وقوله تعالى والفتية : جمع(فتى)،وهو الشاب المكتمل، وتقدم عند قوله تعالى في سورة

(1) طه عبد الرحمان، في اصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص115.

(2) محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم،ص26.

يوسف. و المراد بالفنية اصحاب الكهف، وهذا من الاظهار في مقام الإضمار، فالفنية يدل على كونهم اترابا متقاربين في السن، وذكرهم بهذا الوصف للإيماء الى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الراي، وثبات الجأش، و الدفاع عن الحق، ولذلك عدل عن الإضمار، فلم يقل: اذا أووا الى الكهف.

ب-قياس الخلف: وهو ان يثبت المستدل امرا بإبطال نقيضه كإثبات الصدق بإبطال الكذب، و اثبات الحق بإبطال الباطل اثبات الوحدانية بإبطال التعود وسمي كذلك لان المستدل ينطلق من دعوى خصمه للوصول للمقدمة الصحيحة.

ومن الناس من لا يرضيه الا قياس تام، او برهان عقلي مقنع، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم النزعة العقلية في التفكير، والميل الفلسفي في التحليل، فخاطبهم القرآن بما فيه مقنع لهم وبما يساير طرائق تفكيرهم، فاستخدم القرآن في سبيل اقناعهم الصور التي الفوها في الاستدلال من مثل قياس الخلف، استخدام في اثبات الوحدانية كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بُضْيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ لَبِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ⁽¹⁷⁻⁷²⁾ . اي لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلا دائما الى يوم القيامة، لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب الرزق، اي هل لكم اله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على ان يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ،اي بنور تطلبون فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون و اذا كان جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهارا دائما مستمرا الى يوم القيامة ، هل تستطيع الهتك ان تأتیکم بليل تستقرون فيه من النصب والتعب ،هذه المنفعة العظيمة ابصار متعظ متيقظ، حتى تتزجروا عما انتم فيه من عبادة غير الله.¹

(1) د. محمد سليمان عبد الله الاشقر، زبدة التفسير، مرجع سابق، ص517

فالاستدلال في هذه الآيات قائم على اثبات المطلوب بإبطال نقيضه.

ج- قياس التمثيل:

و هو قياس يستعمل لتقريب الحقائق و إلباس المعاني لبوساً حسباً و توضيحاً بالمشاهد و الصور الجزئية يقول الألمعي: " هو إلحاق أحد الشيئين بالآخر و ذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يُخاطبه أو على أمر بديهي لا تنكره العقول و يبين الجهة الجامعة بينهما".¹

يعد التمثيل من الأساليب البيانية التي استعملها لتقريب المعاني المجرد و توضيحها ، و قد وظف هذا النوع من القياس في جداله بدقة متناهية و صياغة محكمة في التقريب بين الحقائق القرآنية ، و قد ورد كثيراً عند الاستدلال حول قضية البعث.

* نماذج للقياس في سورة الكهف:

في مطلع قصة صاحب الجنتين قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ... خَيْرُ ثَوَابًا وَ خَيْرُ عُقْبًا﴾^(44.43) فجّل هذه الأمثال قياسية ذات سرد وصفي تستهدف توضيح فكرة أو البرهنة عليها عن طريق التشبيه و التمثيل، إذ تراوح ضرب المثل في القرآن بين ضربين اثنين أحدهما يصل فيه المبلّغ إلى المعنى ببسر و أ، الخطاب القرآني. و في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾⁽⁴⁵⁾ أي اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حُسْنها و نضارتها و سرعة زوالها.

و من قياس التمثيل الاستدلال بالمبدأ على المعاد كإثبات البعث بقياس الموت على النوم:

إن الموت كالنوم و البعث من النوم كالاستيقاظ من النوم، يحول الله تعالى في قصة أهل

(1) مقال إلكتروني، الاستدلال على يوم القيامة، مقاتل الصحراء

الكهف و هي واضحة حدثت لأناس لبثوا في كهفهم مدة طويلة نياماً، ثم بعثهم الله بعد نومهم الطويل الذي ظل ثلاثمائة و تسع سنين، عقب الله تعالى في قوله: ﴿و كذلك أَعْرَضْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِم قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ﴾⁽²¹⁾

يقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية يعني إنما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم أن وعد الله بالبعث حق. روى أن ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفاً، فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك ، و قيل بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان فقال بعضهم الجسد و الروح يبعثان جميعاً و قال آخرون الروح تبعث و أما الجسد فتأكله الأرض، ثم إن ذلك الملك كان يتضرع إلى الله أن يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في هذه المسألة فأطلعه الله على أمر أصحاب الكهف ، فاستدل ذلك الملك بواقعهم على صحة البعث للأجساد لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه بعث من يموت.

*نماذج للتمثيل في سورة القصص:

نجد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أَوْتِيَ مَثَلٌ مَا أَوْتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ، لما جاء أهل مكة الحق من عند الله و هو محمد (ص) و ما انزل عليه القرآن، قالوا تعنتاً منهم: هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فأجاب الله عن سؤالهم بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾¹. أي كفر كفار قريش بآيات موسى، كما كفروا بآيات محمد.

و قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَنَا مَثَلٌ مَا أَوْتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذِ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي خرج قارون في زينة انبهر لها من رآها لهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلاً.²

(1) محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير ص 513-514

(2) المرجع نفسه ص 518

-العوامل والروابط الحجاجية:

إنّ لغة القرآن الكريم تحمل في مفرداتها وتراكيبها كثيرا من الروابط والعوامل الحجاجية، التي تصنع نظرية الحجاج في القرآن طابعا لغويا خاصا وفريدا، إضافة إلى ما اختصّ به الخطاب القرآني من أسباب للنزول وسياقٍ وسباقٍ ولحاقٍ وتناسبٍ في الآيِّ والسُورِ، والحجاج "هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"¹، وسنحاول البحث عن كيفية اشتغال الجهاز الحجاجي للخطاب ضمن سلمية اللغة في سورتي "الكهف والقصص" من خلال الوقوف على العوامل والروابط الحجاجية بها.

أ- العوامل الحجاجية les operateurs argumentatifs: هي مورفيمات إذا وجدت في ملفوظ تحوّل وتوجّه الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما وتشمل: الحصر، النفي أو الظروف (ربّما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما إلّا في الحصر).

ب- الروابط الحجاجية: هي أيضا مورفيمات، تقوم بالربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر، وتُسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة². وقد ميّز أبو بكر العزاوي

بين أنماط عديدة من الروابط منها:

- الروابط المدرجة للحجج: وتضمّ كل من (لأنّ، مع ذلك،....).
- الروابط المدرجة للنتائج: وتضمّ (إذن، لهذا، وبالتالي،.....).
- الروابط التي تدرج حججا قوية: وتضمّ (حتّى، بل، لكن،...).
- روابط التعارض الحجاجي: وتضمّ (بل، لكن،.....).
- روابط التساوف الحجاجي: حتّى،.....).

(1) c.plantin ,essais sur l'argumentation, Edition Kim, paris, 1990, p.191.

(2) يراجع، قدور عمران، البعد التداولي في خطاب القرآن الموجه إلى بني إسرائيل، ص43-44

نماذج للعوامل والروابط الحجاجية في سورتي الكهف والقصص:

1- في سورة الكهف:

*العوامل الحجاجية: قال تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ⁽⁸⁶⁾ ﴾، فتجد في هذه الآية عاملي الحصر (ما-إلا) و (لا-إلا) والنفي (لا).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾.

*الروابط الحجاجية: قال تعالى: ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾، أي لكن أنا هو الله ربِّي¹، لكن جاءت متصلة بضمير المتكلم.

وقال تعالى: ﴿ فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾.

وقوله أيضا: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ⁽⁹⁶⁾ ﴾.

1- في سورة الكهف:

*العوامل الحجاجية:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ ⁽³²⁾ ﴾، أسلوب حصر (ما، إلا).

قوله أيضا: ﴿ وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ⁽⁸⁶⁾ ﴾، (ما، إلا) للحصر، والنفي ب (لا).

*الروابط الحجاجية:

قال تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⁽¹²⁾ ﴾.

¹د.محمد سليمان عبد الله الاشقر، زبدة التفسير، مرجع سابق

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾⁽⁵⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾⁽⁴⁵⁾، اتصلت لكن بضمير المتكلم (نا).

وفي قوله تعالى: ﴿ ... قَالَ مَا خَطْبُكُمْ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ... ﴾⁽²³⁾.

خلاصة:

أفصح القرآن الكريم عن نفسه حينما أعلن أنه كتاب تواصل و بلاغة في توظيف ربّاني جميل لقوله تعالى ﴿ وَ لَقَدْ وَ صَّلْنَا لَهُم الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾⁽⁵¹⁾ سورة القصص تعنى أنّ القرآن الكريم أتاهاهم متتابعاً متواصلأً، وعدأً و وعيدأً، و قصصأً و عبرأً و مواظ و نصائح... و أنزل عليهم نزولأً متواصلأً، لم يقتصر في إقامة حجته و براهينه على طريقة واحدة، بل تنوعت طرقه في عرضها و آلياتها من بلاغية و لغوية و فلسفية و تقنيات إجرائها في النص القرآني متمثلاً في جانب مهم منه هو القصص القرآني لتكون ألزم للحجة، و أدعى إلى القبول و الملائمة.

الخاتمة

الخاتمة:

الى هنا يكون البحث قد استوفى بعون الله و فضله فصوله و مباحثه.وبعدان رصدنا دراسة الحجاج في الخطاب القرآني،أفضى البحث الى جملة من النتائج التي سنوجزها فيما يلي:

-ان الخطاب القرآني ، أول ما يخاطب العقل الانساني في بناء لغوي يعتمد على الحجة من أجل الاقناع .

-كل حجاج يستمد معناه ووجوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة ،ومن خصوصية الحقل التواصللي الذي يكتتفه، وهذا ما استتجناه من النماذج و الآليات الحجاجية في سورتي 'الكهف و القصص' التي اختلفت باختلاف الوضعيات التواصلية .

- لقد نطق القرآن الكريم بجميع أنواع الخطاب، وتوسّل بألوان من الحجج و البراهين بعضها يوافق طبيعة الذهن العربي بوضوح مقدماته ونتائجها، و بعضها جاء على ما عرف عند المتكلمين من اعتماد المحاجة المستندة الى الأدلة الدقيقة المعقّدة .

يتميز الحجاج في الخطاب القرآني على التسلسل الحجاجي القائم على السؤال و الجواب.

- ان الأسلوب الناجح للحوار يكمن في اللّين ، وما يرتبط به من سلوك حميد يتجلّى في التأدب والصّبر والنّصح والهدوء والرّفق.

- مفهوم الحجاج عائم يحمل دلالات متنوعة في حقول معرفية كثيرة ارتبط عبر مساره التاريخي بمصطلحات، اعتبرت كمرادفات له (كالجدل ،و الحوار، و البرهان) وكلها تخدم المخاطب لبلوغ هدفه التبليغي الإقناعي.

ارتباط الاقناع بالحجاج ارتباط النص بوظيفته الجوهرية، فهما جزآن لعملية واحدة .

- وجود تقارب بين البلاغة القديمة (ابن الأثير)، والبلاغة الجديدة (برلمان) وذلك من خلال اتّفاقهما في كون الدور التأثيري للبلاغة الذي يقوم على الفهم و الافهام عند البلاغيين القدامى ، وكذلك يقوم على التأثير في النفوس و استمالتها عند البلاغيين الجدد، كما اهتم برلمان بالتمثيل (الاستعارة)، واعطى لها دورا مهما في الحجاج وكذلك فإنّ الصور البيانية التي ذكرها ابن الأثير في 'المثل السائر' (كالاستعارة، والتشبيه ،و الكناية...)، لها دور حجاجي مهم لانحدارها من التمثيل، في تقريب المعنى و تجسيد المعنويات في المحسوسات ليتفاعل معها القارئ .

- اتخاذ القرآن من القصص سبيلا للإقناع و التأثير، وأسلوبا يحتذى به في حاجة الناس بعضهم بعضا .

- انّ المتأمل في سورتي 'الكهف و القصص' يلحظ التزام الانبياء في دعواهم بالأسلوب المنطقي و الادلة المكشوفة والمقدمات الصحيحة المرجوة ، و هذا هو جوهر الحجاج.

- ان الروابط الحجاجية تعمل على تساوق الحجج، و تعاونها، و تعارضها للوصول الى نتيجة واحدة او عدة نتائج، كما تساهم في انسجام النص و اتساقه.

- تعد كل من سورتي 'الكهف' و'القصاص' من المدونات القرآنية التي جمعت اضافة الى رقيها اللغوي طابعا حجاجيا عمليا يخدم اغراض الرسالة الدينية، فجاء عرضها و تصويرها بتنوع الخطابات الحجاجية المتضمنة فيها.

- و فحوى هذا الكلام ان الذي يجيد اللغة بفنونها (الآليات البلاغية، و اللغوية ، والفلسفية...) يبلغ مراده من السامع .

- التعامل مع الانسان من أخطر أنواع التعامل لذلك ينبغي أن يكون حضاريا فاذا فسد القلب فسد سائر الجسد ، و بالتالي تفسد الحياة بفساد الانسان ، فهل الرغبة في الاقناع هي حاجة لدى المحاور ام مطلب يتشبت به المستمع؟. وهل نبحث عن الاحكام العقلية البرهانية المقنعة ام نتبع المغالطات الاجتماعية الناجعة؟.

فالمغالطة هي استدلال أعوج يحاول منتج الخطاب التستر على عوجه و اظهاره كأئه استدلال سليم من أجل ايقاع مخاطبه في الغلط و تضليله، و اذ تفتقر قواعد منهجية و تلجأ الى الجدل و التشكيك، و احداث الريبة في مستوى الاعتقاد و اللجوء الى استمالة مشاعر الافراد خاضع للرغبة و المصلحة ، قائم على التزييق و هذا عكس ما نص عليه القران .

- لا يخفى أنّ الانسان في حياته اليومية يتعرض للعديد من المحاولات الاقناعية ، فهناك دائما من يحاول تغيير رأيه أو موقفه حول شيء معين، فهناك جمعيات و مؤسسات ، و حكومات تحاول اقناع الناس باتباع مواقفها و تتفق المبالغ الطائلة لتحقيق هذه الغاية، ولو أدى ذلك الى تحطيم و قتل وجهة النظر المعادية ، وذلك من خلال تزويد الناس بمعلومات يختلط فيه الوهم مع الحقيقة ، و مثل هذا السلوب مذموم في الكتاب المبين.

- ان دين الله هو النموذج الامثل لتصحيح المعاملات، و الدين الاصلح لتوجيه البشرية بإعطاء الحلول الدائمة لكافة الاحتياجات الانسانية، و الميول المختلفة بأسلوب بسيط وواضح و ادلة متقنة، و يقينية اذ يعطي للفرد الحرية المطلقة في اعتناق الدينون اكراه واجبار .

ان ما سبق ذكره و ما تم عرضه و بيانه بعد تقديمنا لنماذج موجزة لموضوع الخطاب القرآني صادر من ذهن مكدود، وفكر قاصر و ان التفكير المتواصل و العمل الدؤوب قد ينبثق منها اساليب كثيرة تفوق ما عالجناه في دراستنا هذه ففرص البحث مفتوحة ومتواصلة ، فنضع هذا البحث بين يدي كل من خاض في مثل هذا الموضوع (الدراسات الحاجية) لرصد المزيد في كشف وسائل الاقناع ،وفن التعامل مع المخالف و التوسع اكثر في آليات الحاج،ولربما وجد في هذا العمل اعوجاجا فقومه ،ونقصا فتممه،يرى فيه خدمة اكبر للدراسات القرآنية.

ونسأل الله التوفيق.

قائمة المراجع العربية:

- (1) "المصحف الشريف"
- (2) الجاحظ البيان و التبیین، تحقیق عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط.د.ت.
- (3) ابو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقیق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ط 1، 2006.
- (4) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديد، المتحدة، ط 1، 2004.
- (5) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الشرقية، تونس، 1966،
- (6) أبو الحسين إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتح حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، د ط د ت.
- (7) نظر أحمد أبو زيد، الاستعارة عند المتكلمين، مجلة المناظرة، العدد 4 ماي 1991.
- (8) عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، دار الإيمان، الإسكندرية، مصر، د.ط 2004.
- (9) لدكتور زهير الخويلدي، الخطابة الجديدة، الإقناع بدل المغالطة، عرب تايم مقالات منشورة.
- (10) محمد علي القاضي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم 347 .
- (11) ابو بكر العزاوي، اللّغة و الحجاج، ط 1426، 2006.
- (12) طه عبد الرحمان اللسان و الميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1998.
- (13) بن أحمد عالم فايزه، الحجاج في اللّسانيات التداولية – دراسة لنماذج من القرآن الكريم، جامعة مستغانم، الجزائر، ع 75، السنة 19، ربيع 2012 م / 1433 هـ.

- (14) الجامع للقرآن الكريم الإمام القرطبي رحمه الله 286/3.
- (15) جامع بيان العلم و فضله للإمام عبد الله المالكي ر 212 في المقام نفسه يقول ابن فرحون المالكي رحمه الله: اعلم وفقنا الله و إياك أن المراء و الجدال يورث العداوة و البغضاء و يبعث على كشف العورات و الحمية، الزاهر في بيان ما يجتنب من الصغائر و الكبائر.
- (16) حمد عيد، الاستشهاد و الاحتجاج باللغة، رواية اللغة و الاحتجاج بها ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1988 م.
- (17) لحواس مسعودي. البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، مجلّة اللغة و الأدب، جامعة الجزائر، أكتوبر، 1997.
- (18) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث '(222/5).
- (19) ميجان الرويلي، وسعد البازعي، المركز الثقافي، ط2، 2000م.
- (20) سارة ملير، الخطاب، الترجمة: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب و اللسانيات، جامعة متتوري قسنطينة، 2004.
- (21) نور الدين الشد، الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج2، دار هومة، الجزائر، د.ط، 1997م.
- (22) أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010م.
- (23) الدكتور جميل حمداوي، نظريات الحجاج، شبكة الألوكة.
- (24) حبيب أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي.
- (25) محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج و فنونه في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، العدد 2، يناير-مارس 2000 م.
- (26) حمد بلخير، الخطاب تمثيل للعالم - مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية..

- (27) محمد العيد، النص و الخطاب و الإتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط.1، 2005 م.
- (28) عيسى أزيبيط، مداخلات لسانية: مناهج و نماذج، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة مولاي اسماعيل مكناس، سلسلة دراسات و أبحاث، رقم 28، 2008 م.
- (29) مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان 1410 هـ/1990 م.
- (30) أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار، المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطابات، جامعة وهران، ط1، 2004.
- (31) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية.
- (32) ابي الحسن علي بن عيسى الروماني، النكت في إعجاز القرآن، تح محمد خلق الله و محمد زغلول سلام، ط2، 1968م، دار المعارف، القاهرة.
- (33) تفسير القرطبي 263/13، نقلا عن سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية بحث تحليلي لنيل شهادة الماجستير اعداد الطالب محمود عبد الخالق خلّة، الجامعة الاسلامية بغزة، فبسطين 1423 هـ 2002 م .
- (34) أنظر صفوة التفاسير 427/2 . نقلا عن سورة القصص، مرجع سابق.
- (35) الراغب في المفردات، ص
- (36) ينظر مناهج الجدل في القرآن، دار زاهر الألمعي، ص:24.
- (37) يراجع مناع القطاب، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ، ط2، لبنان، 1998
- (38) محمد التومي، الجدل في العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، د.ت.
- (39) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير .
- (40) ابن فارس مقاييس اللغة/ تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، د ط، 3012.
- (41) صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مدخل و نصوص.
- (42) مينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، وريّة أكاديمية في اللغة و الأدب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 02 ماي 2007، ص: 284.

- 43) الأحكام لابن حزم. ج1/40 دار الكتب العلمية بيروت، دت.
- 44) عبد الله صولة، الحجاج فب القرآن الكريم، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الففرايبي، بيروت، ط 2، 2007، ص:8.
- 45- ابو الحسين إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه اليان، تقديم وتح حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، د ط د ت.
- 46- د. محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير، من تفسير الإمام الشوكاني المسمى فتح القدير الجامع بين فني الدراية و الرواية من علم التفسير، مكتبة دار الفيحاء، دار السلام، ط.5. 1414هـ-1994م ،

○ المراجع الأجنبية:

- Sheidel Thomas, Persuaswe speaking, Scott, for seaman and coble biew 1967
- O. Ducrot, Les échelles argumentatives, Edition de minuit. Paris , 1980.
- Emile BEN VENISTE, Problèmes de Linguistique Générales, 2.Gallimard, Paris.1966.
- Le grand rebert. Dictionnaire de la langue française, T.1, Paris 1989.
- Langman, Dictionary of contmparary English.1989.
- Philippe BertonM Congumentation dans la comminication du casbah, Alger, janvier.

المبحث الأول: دلالة الحجاج عند العرب و الغرب

- 1-الحجاج قديما.....08
- 1.1-الحجاج في البلاغة العربية القديمة.....08
- 2.1-الحجاج عند الغرب قديما.....19
- 1.2.1-الحجاج عند أفلاطون:.....19
- 2.2.1-الحجاج عند أرسطو.....20
- 2- الحجاج حديثا22
- 1.2-لحجاج في الدراسات الغربية الحديثة22
- 1.1.2-لحجاج عند "بيرلمان" و "تيتكاه".....22
- 2.1.2-الحجاج عند مايير24
- 3.1.2- الحجاج عند "ديكرو و "أنسكومبر.....25
- 2.2-الحجاج عند المحدثين العرب27

المبحث الثاني: الحجاج في القرآن.

- 1-دلالة الحجاج في القرآن الكريم.....29
- 1.1-الحجاج و مرادفاته الدلالية في القرآن الكريم.....40

الفصل الثاني: الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم

- تمهيد.....49
- المبحث الأول: مفهوم الخطاب.....51
- 1- تعريف الخطاب.....51
- 3- قوانين الخطاب.....53
- 4- أنواع الخطاب الحجاجي.....56
- أولا: تصنيف "أوستين.....58
- ثانيا: تصنيف "سيرل.....58

5- أنواع الحجج: الحجّة:	59
المبحث الثاني: تعريف النصّ الحجاجي	62
1- مراحل بناء النصّ الحجاجي	62
2- مكونات الحجاج	63
3- خصائص الحجاج	64
4- وظائف الخطاب الحجاجي	64
المبحث الثالث: تصنيف الخطاب القرآني	66
تمهيد	66
المبحث الثالث: تصنيف الخطاب القرآن	
1-نواع الخطاب في القرآن الكريم	69
3- الأسس التي يقوم عليها الإقناع في القرآن الكريم	73
3-الإستمالات المستخدمة في الرسالة الإقناعية في القرآن الكريم	76
الفصل الثالث: آليات الحجاج في سورة الكهف و القصص	
المبحث الأول: وصف المدونة	82
1- سورة الكهف	82
2-سورة القصص	86
المبحث الثاني: آليات الحجاج في سورتي الكهف و القصص	91
تمهيد	91
أولاً: الآليات البلاغية	91
2- القصة في القرآن الكريم	99
3- خصائص القصة القرآنية	99
ثانياً: لآليات اللغوية	104
1-استفهام	104
2-لشرط	107
3-لتوكيد	108
4-لإيجاز	109

112.....	5-التكرار
114.....	ثالثا: الآليات الفلسفية
114.....	1-القياس
118.....	2-العوامل والرّوابط الحجاجية
121.....	الخاتمة